14
حروف
رواية

مدونة ابو عبدو

بنات قبلي

ماهر مهران

بنـــات قِبْلـــى

رواية

ماهر مهران

لوجو
الهيئة المربع

سلسلة
حــروف

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن
أمين عام النشر
محمد أبو المجد
مدير عام النشر
ابتهال العسلى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• بنات قبلى
• ماهر مهران
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2013م
13,5 x 19,5 سم
• تصميم الغلاف:
د. خالد سرور
• المراجعة اللغوية: محمد منصور
• رقم الإيداع: ١٠١٤٧/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولى: 978-977-718-373-4
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

14

تعنى بنشر الأعمال الإبداعية لمبدعى مصر المتحققين

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
سيد الوكيل
مدير التحرير
سعيد شحاتة
سكرتير التحرير
محمود أنور

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

بنات قِبْلى

(١)

«إذا رمتك المقادير، ودخلت النص القبلى من قريتنا العتيقة جداً فسوف تجد رجلاً قصيراً لا يزيد طوله عن تسعين سنتيمتراً، رجلاً ضئيل الحجم والكتلة، لا يزيد وزنه عن خمسين كيلوجراماً، إذا رمتك المقادير، ودخلت النص القبلى ورأيته، سواء جالساً القرفصاء، ساندًا رأسه إلى بندقيته التى هى أطول منه، ومتكئاً بظهره على حائط بيت أبى الغيط الطينى، أو راكباً فرسه ذات السرج المذهب الأنيق، إذا دخلت النص القبلى ورأيته، وغالباً ما سيحدث هذا، فاحذر هذا الرجل، لا تحك أنفك أمامه، ولا تنظر إليه، ولا تسأله عن شيءٍ أبدًا أبدًا، فقط انظر فى الأرض، وأسرع فى الخطو حتى تمر من أمامه، وإن -لا قدر الله- نادى عليك، فاذهب إليه مسرعًا، وإن أمرك بشيءٍ -أى شيءٍ- افعله فوراً فوراً، ولا

تتردد ، فإن ترددت سيمسك بندقيته الآلية ، ويفرغ ما فى جوفها فى قلبك ، وغالبا ما سيكون جوفها ممتلئًا ، فالذخيرة فى جيب جلبابه الواسع ، وفى الحقيبة الجلدية ، والحقيبة الجلدية تتدلى من كتفه ، وإن أطلق بعض الأعيرة ، وهذا يحدث كثيراً ، يضع يده فى جيبه الكبير ، ويخرج الطلقات من جيبه كحبات بلحٍ ، ويسحب الخزنة من البندقية بسهولة من اعتاد ذلك ، ويلقمها الطلقات كفمٍ جائعٍ لا يرد طعامًا ، ولا يتململ خلال الأكل ، وبعد أن يفرغ ما فى صدرها فى جوفك يصلى عليك صلاة الجنازة إمامًا ، وخلفه أهل القرية ، ثم يأمر "لحّاد" القرية بأن يحفر لك حفرة فى المكان المخصص للأغراب فى الجبانة ، ويدفنك فيه ، ثم ينسى كل ما حدث ، ويعود ليجلس القرفصاء فى نفس المكان بمدخل النص القبلى ساندًا ظهره لحائط بيت أبى الغيط الطينى ، وممسكًا ببندقيته الآلية بين يديه

(٢)

كانت الحصة الرابعة قد بدأت، وكان الأستاذ رشدي سلام قد دخل الفصل بخطوات سريعة حاملا حقيبته الجلدية المهترئة والممتلئة تحت إبطه الأيسر، وفى يده اليمنى العصا الخيزرانية القصيرة التى تهدل طرفها من كثرة ضربه لأجسادنا الناحلة المتيبسة، وعلى جبينه بعض حبات العرق، وكرشه الكبير -مثل امرأة حامل فى شهرها التاسع- يهتز أمامه، وضع الحقيبة على المنضدة الخشبية القديمة الخاصة بالمدرسين، وشّمر أكمام بدلته المتهالكة، وضرب المنضدة بعصاه مرتين، وبكمه المتسخ أزال حبات العرق من جبينه قائلا:

- قيام يا كلاب.

لم نكن جالسين عندما قال ذلك، بل كنا واقفين، ولخوف الجميع منه استقمنا فى الوقوف أكثر، وفتحنا صدورنا ذات الضلوع التى

تعد بالواحدة أكثر، ورفعنا رؤوسنا أكثر، وثبتنا أعيننا فى سقف الفصل، حيث سعف النخل المخلوط بالطين، والمخلوط بالتبن الناعم الذى نسميه "ساس"، والمرصوص بعناية على جريد النخل اليابس..

وضع العصا، وجلس على الكرسى الخيزرانى، وفتح حقيبته، وأخرج منها ثلاثة أرغفة "طابونة" مطوية على بعضها، وبدأ يفك الأرغفة من بعضها، وهو يقول:

- اترزعوا.

جلست وجلس زملائى وزميلاتى صامتين كالأصنام خوفًا من لسعة عصاه الخيزرانية التى تشبه لسع العقارب، وبدأ هو بإخراج ثلاث بيضات، وخمسة أقراص طعمية، وبشهيةٍ مفتوحةٍ كمنور ماءٍ فُتِحَ فجأةً بعد سيلٍ كان يلتهم الطعام التهامًا، ارتفعت أصوات الزملاء والزميلات محدثةً ضجةً وضوضاء سببت له ضيقًا، لكنه توّحد مع الأكل، وظل يظلط الطعام ظلطًا غير مكترث بالضوضاء والضجة والأحجار الصغيرة المعجونة بالخبز.

فى نفس الوقت شعرت برغبةٍ عارمةٍ فى التبول، مثانتى ممتلئةٌ كبالونةٍ ملأتها بالماء عن آخرها، وكادت تتمزق، والحرقان يأكل قضيبى، وأنا ألملم أعصابى، وأحاول أن أتماسك قبل أن يندفع الماء لا إراديًّا بقوة، ويغرق مريلتى وسروالى وزملائى والفصل كله، وربما يصل إلى الأستاذ رشدى ويغرقه، أو يصل إلى طعامه ويفسده فيغضب، وتحمر خدوده، وينهال علىّ ضربًا، وهو يقول بحروفٍ متلاحقةٍ:

- يا بو شخة يا بن الكلب.

خوفي من أن تلتصق بي هذة الشتيمة جعلني أتماسك وأقف في خوف، وأخطو في خوفٍ أيضًا نحو الأستاذ رشدي، وأقول بحروفٍ متلعثمةٍ:

- عايز أتصيّر يا أستاذ.

وهو مستمرٌّ في خلط البيض بالطعمية بالخبز أخذ يتفحصني ويتأكد من صفرة لوني، ونحافة عودي، وكرمشة جلدي، وعندما تأكد من كل ذلك، وجدت الفتات يتطاير من فمه غزيراً كالمطر، وسريعًا كالقطار الذي شاهدته في التليفزيون، وهو ممزوج بأحجار صغيرة ابتعدت عن طريقها عندما قال:

- غور.

مسرعًا، وأنا أجري، وضعت طرف مريلتي القديمة بين أسناني، ويمناي على قضيبي، ويسراي على مثانتي، وقلبي يدعو الله أن أصل إلى السور قبل أن ينهار سد المثانة، وأغرق، وتغرق مريلتي وسروالي، ويناديني الجميع وهم يضحكون عليّ قائلين:

- أبو شخة أهوه. أبو شخة أهوه.

وأنا أجري رأيت تلاميذ فصل ٣ / ١ منكفئين على الأدراج، ومدرسهم الأسمر مثلي الأستاذ حسن يمسك يد "الأبلة" حلاوة في مشهد رومانسي مثل المشاهد التي أراها لممثلين يظهرون في التليفزيون الذي نشاهده أحيانًا في مقهى "أبو الغيط"، وذلك بعد أن يأخذ كل طفل من أمه بيضتين، ويسلمهم لـ"أبو الغيط" ثمنًا

للفرجة على التليفزيون ذى اللونين الأبيض والأسود الذى يعمل ببطارية يتم شحنها كل ثلاثة أيام، لم أهتم، واستأنفت الجرى، وأثناء الجرى، وقعت عيناى على ناظر المدرسة ببدلته البنية اللون، وهو يقسّم أقراص الحلاوة الطحينية الكبيرة قسمين، ثم يأمر بدران العامل بتوزيع قسم على كل تلاميذ المدرسة، بالطبع سيقتطع العامل جزءًا منه لنفسه، ويضع القسم الثانى على كتف ابنه قائلا:

- على البيت عدل.

التفت الناظر إليّ بعيون حمراء غاضبة كعيون ذئب غاضب، فاستأنفت الجرى حتى خرجت من مبنى الفصول، ووصلت إلى آخر السور حيث رائحة الزناخة، والخراء اللين واليابس، والذباب، والبعوض، وبسرعة أخرجت قضيبى الضامر المنكمش من سروالى الذى تبدّل لونه الأبيض بالأحمر، وانطلق منى ماءٌ يميل للحمرة، وأنا أتألم كلما نزلت قطرةُ بولٍ ممزوجةٍ بالدم، وأثناء انشغالى بمعرفة درجة احمرار البول ونسبة الحرقان نظرت إلى الأرض ووجدتها قد شربت البول الذى تبولته؛ لم أندهش، فنحن فى أواخر إبريل، وحرارة الأرض تكاد تذيب حذائى الأبيض البلاستيكى الممزق، وفي أثناء انشغالى بالنظر فى الأرض سمعت صوت فايزة أختى تقول فى غضبٍ شديدٍ:

- يلعن أبو أبوك انت.

التفت بسرعة ووجدت أختى السعفاء بمريلة المدرسة الزرقاء الخاصة بالإعدادية تخطو خارجةً، وهى تسب الأستاذ عاشور؛

غضب الأستاذ عاشور، وجرى خلفها مسرعًا، أسرعت السعفاء هاربة، أدرك عاشور أنه لن يلحق بها، وبخاصة أن باب المدرسة مفتوحٌ، فطوّح عصاه بقوة نحوها، دخلت العصا بين قدميها، سقطت السعفاء على الأرض، وطارت فردةٌ من حذائها، ثم تكورت، ثم سقطت، ثم تكورت كلاعبة "باليه" محترفة، وقصرت المسافة بينها وبين الأستاذ عاشور حتى كاد يمسك بها، لكن قبل أن يفعل وقفت مسرعة، وهربت من بين يديه، وأمسكت فردة حذائها، والتقطت أحجارًا، وانهالت عليه رميًا وضربًا وسبًّا وشتمًا وتهديدًا ووعيدًا، ولم تهدأ إلا عندما اصطدم حجرٌ من أحجارها برأس الأستاذ عاشور وسالت دماؤه الباردة، وهنا أسرع ناظر المدرسة نحو عاشور، وأسرع العم فريد بائع الفول والطعمية نحو السعفاء، وبسرعة سحبها من يدها اليمنى، وباليسرى كانت فايزة تنفض التراب العالق بمريلتها الزرقاء، وذهب بها إلى النصبة، وأخرج علبة السجائر الصفيح، ولف سيجارتين واحدة له والأخرى للسعفاء، وعندما أشعل سيجارته قال في استفهام:

- ما له بيكى؟

أخذت السعفاء نفسًا من السيجارة، وأخرجت الدخان من فتحتي أنفها، وقالت في حرقة:

- دا واطي وابن ستين كلب.

- ليه بس يا بتّي؟

ضحكت السعفاء، وقالت وهى تخلط حروفها بالدخان الخارج من فمها:

- قال إيه رُمّانى كبر ونفسه يدوقه.

ينظر عم فريد لصدر السعفاء فيكتشف لأول مرة أنها كبرت، وصار لديها وجه كالقمر، وأسنان كاللؤلؤ، ورقبة كالجمل، وعود كالغزال، وثديان كالرمان، وشفتان كالفراولة، ودم به خفة لا تحتمل، وبشرة خمرية كعجينة القمح التى على وشك الاختمار، وَعِرْقٌ فى الجبين ينتفخ فى حالات الغضب، ويجعلها أجمل ما خلق الله، لكنه يعلم أنها ستكون أكثر جمالا لو أتمت تعليمها، وبخاصة أنها فى الصف الثالث الإعدادى، وما تبقى لها ليس كثيراً، فيقول لها فى أبوة وخوف عليها:

- طب والمدرسة؟

تقف السعفاء، وتقول وهى تنفض التراب العالق بمريلتها، وترمى ما تبقى من سيجارتها فى حزم بجوار بقايا الطعمية والباذنجان والبطاطس المقلية وفتات الخبز وتبصق بقايا الدخان العالقة بشفتيها فى الهواء وتقول:

- تغور المدارس ما دامت هتعلمنا قلة الأدب.

تخطو السعفاء فى طريق ترابى ضيق ملتوٍ يحده سوران من الطين، والأشواك، وبقايا الزجاج المكسور، وهى تركل الحصى والأحجار بحذائها البلاستيكى متجهة إلى البيت الذى يبعد عن المدرسة بمقدار تسعة عفاريت، وعشرة كلاب مصابة بالسعار،

وسبعة أطفال يجمعون الريمخ فى أكياس، وخمسة عشر طفلاً هربوا من المدرسة، ورموا أنفسهم فى أحضان الترعة، وقسموا بعضهم خمس عصابات تسرق الفواكة والخضروات من الحقول الممتدة لمسافة أربعة كيلومترات، وطول المشوار الذى يستغرق أكثر من نصف ساعة من المشى الجاد حتى تصل إلى البيت!

كانت فايزة لا تدرى ماذا ستقول لأمها، وكيف ستهرب من ضرباتها الموجعة، وقطع خدودها المؤلم، وقسوتها عندما تعرف أنها قررت ترك المدرسة، والتوقف عن التعليم نهائيًّا؟ لا ينتزعها من هذا التفكير إلا فوهة بندقية الرجل القصير، وهى تحك فى كتفها الأيسر، انتبهت السعفاء فجأة، ونظرت بسرعة، ورأت الرجل القصير خلفها يضحك على فرسه ويقول:

- يعنى بتّنا العسل عاودت بدرى من المدرسة؟

تقول له السعفاء:

- لا بدرى ولا وخرى.

- يعنى إيه؟

- ما رايحاش مدارس تانى.

ثم ضحكت وابتعدت عنه متجهة نحو بيتهم وهى حريصة على ألا تقول له سبب تركها المدرسة لأنها لو قالت فسوف يذهب الرجل القصير ويمزق جسد هذا المدرس الغريب كطفل يمزق ورقةً من كراسته، وهى لا تود أن تصل الأمور لهذا الحد بسببها.

(٣)

«هذا الرجل الذى حذرتك منه، يخرج صباح كل يوم إلى مدخل النص القبلى حاملاً بندقيته الآلية، يضرب طلقاتٍ فى الفضاء الساكن، ثم يقول متحديًا ناس قاو العتمانية جميعًا، وهو يلوى فكه الأسفل ويضع أنفه موازيًا للسماء ويقول:

- مافيش حد عايز يرمّل مرته؟ مافيش حد عايز ييتّم عياله؟ مافيش حد عايز يكسر قلب أمه عليه؟

إن سمعته يقول هذا؛ حذار من إبداء الغضب، أو الاعتراض عليه، أو عدم الرضا، وامش مسرعًا لا متلفتًا ولا معترضًا ولا متململاً، لأنه لو لاحظ منك اعتراضًا أو عدم اقتناع سيمسك بندقيته الآلية ويفرغ ما فى جوفها فى قلبك مثلما فعل مع حسين زوج أخته الذى لم يعجبه الكلام الذى قاله له، فنسى نفسه

واعترض، فقتله أمام أخته وابنها الصغير، لهذا احذر أن يرى فى عينيك رفضًا، أو عدم اقتناع بكلامه، وسر مسرعًا لا تحك أنفك، ولا تتلفت، ولا تتنهد حتى تتجاوزه، وبذلك يُكْتَب لك عمرٌ جديدٌ، فأنت غريبٌ، ولن تكون أبداً أغلى عليه من حسين نسيبه وحبيبه الذى قتله، ثم غسّله، ثم كفّنه، ثم سار فى جنازته يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ثم دفنه، ثم تلقّى العزاء فيه لخمسة أيامٍ متواصلةٍ

(٤)

يوم الخميس فى قريتنا والقرى المجاورة هو يومُ عيدٍ؛ الجزارون يخلعون جلابيبهم الأنيقة، ويسنون سكاكينهم وسواطيرهم، ويحضرون موازينهم، ويختارون ذبائحهم من الماعز أو الخراف أو صغار الجاموس، والرجال يلتفون حولهم رغبة فى انتقاء ما يريدون من اللحوم الشهية الطازجة، ثم يعودون إلى بيوتهم حاملين قطع اللحم ملفوفةً فى ورق الأسمنت الأصفر، ثم يبدأ دور النساء فيخرطن البصل، ويغلين الزبدة حتى تتحول إلى سمن بلدى. الصغار -مثلى- يتوددن إلى أمهاتهم بهدف الحصول على المردة الممزوجة ببعض فتات الخبز والملح، والتى تتمتع بطعمٍ خرافى، ثم يغسلن البرام الفخارى الذى ينضح سمنًا كلما وُضِع على النار، ثم يضعن البصل مخروطًا فى البرام، وبعد دقائق يضعن السمن

واللحم، ويبدأن فى إعداد أهم وأشهى أكلةٍ فى قريتنا والقرى المجاورة، ألا وهى المرق، ثم يتركن المرق يغلى فى البرام فوق قطع الخشب المشتعلة، ويبدأن فى إحضار دقيق القمح، ثم عجنه فى المواجير الفخارية، ثم تقطيع العجين قطعًا كالكرات الصغيرة المتساوية تمامًا، ثم يمسكن عصا خشبيةً ناعمةً جدًّا تُسَمّى نشّابة، ويقمن برق فطير القمح الذى يشبه الملبن فطيرةً فطيرةً.

كان أبى يجلس القرفصاء وسط حوض الجرجير وهو يخلّص الأرض من الحشائش الضارة بمهارة، ويربت على عروش الباذنجان وعلى زهوره الزرقاء الجميلة وأوراقه الناعمة بحنّيةٍ شديدةٍ، كما كان يربت على كتفى كلما ضربتنى أمى عندها سألته:

- انت ليه ما مسافرش زى الناس؟

- أسافر فين؟

- تسافر برّه

- وأسيب البنات على مين؟

قال ذلك وهو ينظر لأمل وهى تقلّم عروش البامية، ولعالية وهى تجمع الحشائش فى جوال تبقّى من أجولة القطن، وللسعفاء وهى تغسل رؤوس الفجل البيضاء بعنايةٍ فى الترعة، وتغسل أوراقه جيدًا..

عندما لمحتُ دمعةً فى عينى والدى، ذلك الرجل الذى يرفع الأردبّ من على الأرض مرةً واحدةً، ويغلب مَنْ يتحدّاه فى لعبة "الباط" وفى "التحطيب"، عندما لمحت دمعةً فى عينيه أدرت وجهى

ناحية بيوت القرية فوجدت الشمس مالت للغروب، وأدخنة الأفران غطت سماء القرية، وانتشرت فى الجو رائحة المرق الشهية تؤكد أن اليوم هو يوم الموسم، وتذكّرت منظر الغروب الذى أعشقه، فالتفت يسارًا حيث كرة الشمس البنفسجية الرائعة تنزل شيئًا فشيئًا على شواشى النخيل العالى والنبق والسنط والصفصاف والجميز والمانجو.

وقف أبى وذهب إلى الترعة وتوضّأ، وفوق الحشائش الخضراء الطاهرة على رأس حقلنا، كما تعوّد، صلّى المغرب، وصلى ركعتين شكرًا لله، ثم اختتم صلاته، وبعد أن دعا ربه بالستر كما تعوّد أيضًا، وقف، ووقفت، ووقفت السعفاء، وأمل، وعالية، وعندما خطا أبى خطونا خلفه فى طريقٍ ترابى ضيقٍ، حقلنا على يمينه، ومجرى ماء متدفق تعبث فيه أسماك البلطى على يساره، كنت أمشى حذرًا وخائفًا من شوك النخل المرمى فى الطريق، ومن السقوط فى مجرى الماء، لهذا تأخرت عنهم قليلاً، وأصبحت أراهم يقتربون من بيتنا الطينى، وقبل أن يدخل أبى البيت، وندخل خلفه، وتحضر أمى لحوق المرق والفطير والفجل والجرجير، ونلتف حوله فرحين، ونأكل بشهية رائعة، فوجئت بجارتنا مولعة تخرج من باب بيتها الطينى مسرعة، وغضب الدنيا والآخرة على وجهها، وبسرعة تمسك مولعة بالسعفاء أختى بقوة، وتنزل فيها ضربًا وصفعًا وركلاً، وأختى السعفاء تقاومها وهى تستغيث بأبى..

بسهولة خلّص أبى أختى السعفاء من بين أسنان جارتنا مولعة، فهو قوى البدن، ولو أراد تطويح مولعة فى الفضاء، كما يفعل مع

الأحجار التى يجدها فى حقلنا ويطوّحها ناحية الترعة، لفعل، لكنه اكتفى بأن يخلّص السعفاء من مولعة بصبرٍ، فهى كما يقول زوجة سليم، ابن أخيه الأكبر رضوان الذى يحبه، وصحيح أن لسانها زفر، لكن قلبها طيب، هكذا يقول أبى عن مولعة.

سحب أبى أختى السعفاء خلفه، وسحبنا خلفه على أمل أن تكتفى مولعة بما فعلت بالسعفاء، لكن مولعة التقطت بضعة أحجار من الأرض، وبغيظ ضربت بها أختى السعفاء وهى تقول:

- خليها تبّعد عن جوزى.

ظلت مولعة تسب السعفاء بأعلى صوتها، وظلت ترمى الحجارة ناحيتها، والسعفاء تريد أن تفلت من بين يدى أبى التى كادت أصابعه تثقب لحم يدها، وتعود لمولعة، وتضربها بالجزمة البلاستيكية التى تلبسها، لكن أبى يمسك بالسعفاء أختى جيداً، وقبل أن ندخل من بوابة البيت رأيت حجراً من أحجار جارتنا مولعة يطير بجوار رأس أبى وما عليها من لبدة صوف وعمامةٍ وشال أبيض، ناحية البرام الفخارى الذى يحوى عشاءنا الشهى، ويكسره، وينزل ما فيه من مرق ولحم على النار الهادئة، وكلما نزلت قطعة من البرام على النار الموقدة فى الكانون، كنت أشعر أن حلمى المتمثل فى أكل المرق واللحم والفطير ينهار شيئًا فشيئًا، حتى سقط كل ما فى البرام فى رماد الكانون الطينى، وانهار حلمى تماماً، واستسلمت مثل أبى وإخوتى وأخواتى للحزن وللحسرة، ولم أنتبه إلا على صراخ السعفاء، وهى تصرخ تحت أمها، وتستغيث

بأبى، وأمى تضربها بعنفٍ وقسوةٍ شديدين وهى تتكوم عليها كضبعٍ يفترس غزالةً صغيرةً، وتلومها على ترك المدرسة، وعلى وقوفها مع ابن عمها سليم، والكلام معه، والضحك، والمياصة، والمياعة.

على الرغم من حبى للسعفاء، فلم أجرؤ على إبعاد أمى عنها، ولم يجرؤ أحدٌ، حتى أبى، لهذا ظلت أمى تضرب، وأختى السعفاء تستغيث، ودخان سيجارة أبى اللف يتصاعد من فتحتى أنفه بحرقة حتى كادت تنزع شعر رأسها فى يديها، ثم قال أبى غاضباً لأمى:

- كفاية يا ولية؛ البت هاتموت تحتك.

ازداد غضب أمى، وازداد ضربها للسعفاء، وازدادت صرخات السعفاء، وقف أبي وأمسك عصاه الخيزرانية الغليظة بيسراه القوية، وضرب أمى ضربة موجعة فى كتفها الأيمن جعلتها تترك أختى السعفاء وتلتقط سعاد أختى الرضيعة الملوثة بتراب البيت وصماد الكانون والفرن وبقايا الدقيق، التى كانت تصرخ فى فزع، وترزعها على صدرها رزعاً، وتضربها على ظهرها ضربةً قويةً جعلت سعاد تصمت تماماً، وبدون طرحتها السوداء، وبدون حذائها البلاستيكى، هرولت أمى خارجةً وهى تقول فى غضب:

- والنبى لا سايبه لكم البيت.

(٥)

(هذا الرجل القصير الذى لم يزد طوله على التسعين سنتيمتراً، لو جاءك وأمرك أن تترك أرضك التى هى على وشك أن تحصدها، أو تترك بيتك الذى تعشق جدرانه، أو تترك زوجتك التى تقبّل التراب الذى تمشى عليه، أو تترك بنتك التى هى كل حياتك، أو تترك جلبابك الذى يسترك، لو -لا قدّر الله- جاء وطلب منك أيًّا من ذلك فاتركه، ولا تتردد، ولا تحك أنفك، ولا تعترض، فإن اعترضت سيأخذ ما أمرك به كما أخذ من رجالٍ كثيرين قبلك ولم يعترض أحدٌ عليه، وسيمسك بندقيته الآلية، ويفرغ ما فى جوفها فى قلبك، ويحفر لك حفرةً، ويصلى عليك إمامًا، ولا يجرؤ أحدٌ خلفه مهما يكن، حتى مأمور شرطة مركز البدارى، مركزنا العريق الضارب بجذوره فى العصورالحجرية، إلا أن يقول:

آمين.. آمين.. آمين)

(٦)

على حصيرة قديمة من الحلفا كنت أجلس أمام أبى، أو قل على طرف حجر جلبابه البلدى الواسع، كان أبى يشطف كنكة الشاى المتهالكة منزوعة اليد، كثيرة الصدأ، كثيرة الثقوب، وخاصة فى الجزء الأعلى منها، ثم يضع قليلا من الماء فى الكنكة قدر ثلثى كوب زجاجى من أكواب الشاى، ثم وضع يده فى جيب الصديرى المتهالك، وأخرج محفظة جلدية كبيرة مهترئة أيضًا، ومنها أخرج قطعة سلوفان ناعمة شفافة رقيقة من ذلك الورق الناعم الذى يغلف علب السجائر، فك قطعة السلوفان، وأمسك بقطعة حشيش داخلها، أقل من حبة ترمس يابسة، وتشبه لون الحناء، ولها رائحة جميلة، أنا أعرف أنها حشيش، فأنا الذى أحضرها لأبى عصر كل يوم أحد وخميس من (أبو الغيط)، وذلك عندما يضع أبى فى يدى خمسة جنيهات، غالبًا ما تكون أرباعًا وأنصافًا وشلنات وبرايز، ويقول لى:

- خد دول وروح قول لأبوالغيط هات الأمانة لأبوى.

المهم، وضع أبى قطعة الحشيش فى الكنكة الصدئة، ثم وضعها على نار صافية لا دخان لها ولا شعلة، وأخذ يستمع لأختى السعفاء عما فعلته بالأستاذ عاشور، ويضحك، يستمع ويضحك، ثم بدأت أختى السعفاء بخفة دمها تلعن جارتنا مولعة، وتلعن غيرتها على زوجها سليم ابن عمى، وتحكى عن قبح مولعة، وقلة جمالها، ولسانها الطويل، وأسنانها الطويلة، ونحافة جسمها، واصفرار لونها، وفمها الذى يحتفظ بأشياء بيضاء مقرفة عند نهاية الشفتين، أشياء مقززة، وعن شعرها الأكرت، وأبى يضحك، والحشيش فى الكنكة بدأ يغلى، والسعفاء تؤكد لأبيها ولنا أن سليم ابن عمها الأنيق الجميل العايق خسارة فى مولعة، وتؤكد أيضًا أنها لو كانت كبيرة وقت زواج سليم من مولعة لكانت حالت دون ذلك، ولتزوجته هى، ضحكت ولكن لا أدرى لماذا سألت نفسى: هل هى تحب سليم أم أنه ابن عمها وكفى؟ وضحك أبى، لكن أمل أختى عبست بوجهها، ومدت شفتيها الغليظتين، وقالت:

- بس يا سافلة.

أمسكت السعفاء بجزء يابس من عود ذرة رفيعة مرمى بجوار الفرن الطينى، وهمت بضرب أمل، لكن أبى أمسك بيد السعفاء، وضمها لصدره فى سعادة، وراح فى نوبة ضحك لم تنته إلا عندما زاد غليان الحشيش فى الكنكة، ونزل بعضه على جمرات النار، وأحدث صوت طشطشات كثيرة، هنا أبعد أبى أختى السعفاء عنه

قليلا، وبسرعة أمسك بالكنكة عن طريق قطعة قماش قديمة لفها حول عنق الكنكة، ثم صب كمية قليلة من السائل الأصفر ذى الرائحة العطرة فى كوب زجاجى صغير مخصص لشرب الشاى، وأعطانى إياه قائلا:

- اشرب دول عشان الحرقان.

ثم صب كمية قليلة أيضاً فى كوب آخر، وقدّمه لأختى السعفاء قائلا:

- وانت اشرب دول يا سعف.

ثم صب ما تبقى، وكان ما تبقى أكثر مما صبه لى، وللسعفاء بكثير، وباستمتاع شديد كان أبى يتلمظ الحشيش، ويقول:

- كان نفسى تطلعى واد يا سعف.

- ولا يهمك؛ بتك أرجل من ١٠٠ واد.

ثم ارتشف أبى رشفة من كوب الحشيش الأصفر كالحلبة، والمعطر برائحة جميلة تنعش الصدور، واتكأ على ماجور فخارى يمينه، وقال:

- أمكم قعدت تلات سنين ماتخلّفش، وكنت ع أصيد فى الدميرة، وبعد ما تعبت من الصيد رحت لّميت شوية خشب وولّعت فيهم عشان أتدفا، المهم اتدفيت، وأتارى عينى غفّلت ونمت، وإذ بىّ أشوف راجل لابس أبيض ف أبيض ووشه تتولع منه عودة الكبريت، الراجل قال لى: افرح، كربك هيزول عشان أنت صبور، وربنا هيكرمك ببنت حلوة قوى، بنت أبرك من مية واد، بس تسمّيها

السعفاء، واوعى ما تسميهاش السعفاء أو تغير اسمها عشان لو دا حصل هتتاخد منك أو هتتضر.

وفي عز تركيزي مع أبي وهو يحكي، سمعت طرقات حادة وقوية ومتباعدة على بوابتنا القديمة المتهالكة، والتي شهدت أربعة سيول، وأربعة انهيارات لحوائط بيتنا الطينية، انهارت الحوائط، وبقيت البوابة، فخشبها أصيل، وذكي النجار -صديق أبي- صنعها بإتقان ومحبة، بسرعة سكبت ما في الكوب الزجاجي الصغير في جوفي، ووضعت طرف جلبابي الذي صار لونه بنيًّا من بولي، ومن بقايا الريمخ، وضعته في فمي وبين أسناني الصفراء، وهرولت ناحية بوابتنا المفتوحة، وما إن وصلت البوابة المفتوحة وتجاوزتها وتجاوزت العتبة الطينية العالية حتى وجدت رجلاً طويلاً كالنخلة، وأسمر كالليل بيده عصا خيزرانية نحيفة أنيقة، وبالأخرى لجام فرس أكثر أناقة يلفه حول يده، وبه يتحكم في فرسته الجميلة ذات السرج المذهب، والشعر شديد النعومة، لم أتبين ملامح هذا الرجل، فالدنيا ظلام، والقمر لم يطلع بعد، وشاله الأبيض المزهر يتدلى على عينيه وعلى أنفه وفمه..

قال الرجل: أبوك جوّه؟

قلت: أيوه.

قال: قول له ياللا.

وقبل أن أخطو للداخل وأخبر أبي، كان أبي قد قال بصوت مرتفع:

- اتفضل اشرب شاى يا شيخ البلد.

- نشربه هناك.

وقف أبى، وأمسك بعصاه الطويلة الكبيرة الملقاة بجانبه، وخطا ناحية الرجل وخلفه السعفاء، وما أن وصله حتى سلم عليه سلاماً عفيًّا أحدث صوتًا عاليًا، وحاول معه أن يدخل ويشرب الشاى لكن الرجل رفض واستعجله، لهذا خطا أبى معه لكنهما لاحظا أننى أنا وأختى السعفاء نسير خلفهما، أمرنا أبى بالبقاء لكى نرعى إخوتى وأخواتى الباقين، لكننا تمسكنا بالذهاب مع أبى، فنحن نحبه جدا، فهو لم يضرب أحداً منا حتى الآن، ولم يشتمنا، ولم يعاملنا بقسوة مثل أمى سامحها الله، كرر أبى رفضه لذهابنا، لكن الرجل الذى كان يدقق النظر فى أختى السعفاء من قدمها وحتى شعر رأسها قال لأبى:

- خليهم ييجوا يسلموا على أمهم.

هز أبى رأسه موافقًا، وسار بجوار هذا الرجل، وسرت أنا خلفهما حافيًا، وبجوارى أختى السعفاء بحذائها البلاستيكى الملون باللون الأحمر..

كنت أخطو بخفة وكأنى أمشى على سطح القمر، أدوس على الأحجار وشظايا الصوّان بقدمى الحافيتين ولا أتوجع، أفتح صدرى وأملأه بالهواء المعطر المحمل بروائح زهور البرتقال والرمان والمانجو، وأتأمل الطريق حولى وكأنى أراها لأول مرة، البرسيم الذى شاخ وتيبس ونام على الأرض حاملاً غلاله على يسارى والقمح الذهبى،

وهو يستقبل ضوء القمر الأبيض، ويعكسه ذهبيًّا على يمينى، وسمعت نقيق الضفادع، وعواء الذئاب، ونباح الكلاب، وتأمّلت الجبل العالى شرقًا بدون خوف، وبعد عشر دقائق خرجنا من الطريق الترابى الذى يربط كولة وادى الشيح التى أسكن على أطرافها، وصعدنا الأرض العالية المسطحة التى تعلو الوادى، وبدأنا نمشى فى ممر ترابي خالٍ من البيوت، وخالٍ من أى شىء إلا صفير رياح خفيفة منعشة، لكن بعد عشرات الأمتار بدأت تظهر أنوار كشافات ضعيفة وبعيدة، وبدأت تظهر بيوت قرية العتمانية الكثيرة، سألت أختى السعفاء همسًا عن أصحاب الكشافات المنتشرة ليلاً فى هذا المكان، فأجابتنى همسًا:

- دى ناس ع تطلّع لقايا.

كنا قد دخلنا فى زمام الجبانة، وكان هاجس خوفى من العفاريت بدأ يتملّكنى، اقتربت من أبى، ومسكت ذيل جلبابه، نظر الرجل - صاحب الفرسة- للخلف ناحية أختى السعفاء، وابتسم، وقال لأبى، وهو ينظر مدققًا فى السعفاء:

- دا ولدك باين عليه خوّاف.

ضحك أبى، وضحك هو، وضحكت السعفاء، وأنا انشغلت بقراءة (قل هو الله أحد)، وتقليد صوت ارتطام حوافر الفرسة بالأرض أملاً فى إبعاد صورة العفاريت عن ذهنى حتى تجاوزنا الجبانة، وفى الوقت الذى هدأت فيه دقات قلبى لمحت أربعة رجالٍ بنادقهم فى أيديهم، وحقائب الذخيرة الجلدية الممتلئة تتدلى من على أكتافهم،

ووجوههم ملفوفة بالشيلان الكشمير، ولا يظهر منها شيء وهم يمرون من أمامنا مهرولين، منهم ولد لا يزيد عمره عن عشر سنوات، لكنه يحمل بندقية مثلهم، وخريطة مثلهم، ويلبس جلباباً مثلهم، ويلف رأسه بشال كشمير مثلهم أيضًا، قال الرجل صاحب الفرسة لأبى:

- هوّ عبد الرسول وجماعته مش ناويين يجيبوها البر؟

- حقهم يا شيخ البلد.

- طب ما ياخدوه ويخلصّونا.

- ع يقولوا خليفة عامل حجاب.

كنا قد دخلنا فى الشارع الترابى الذى فى آخره بيت جدى، البيوت الطينية على يميننا، والسرداب على يسارنا، دخلنا فى الرهبة، اقترب الرجل من شجرة الجميز الضخمة، واقتربنا، لتحت جدى بقامته العالية، وصدره العريض، ورأسه الضخمة، يجلس أرضًا وحوله أخوالى، وفى الوسط الطبلية النحاسية، وهم يأكلون، قال الرجل صاحب الفرسة، وهو يربط اللجام فى وتد خشبى تحت الجميزة:

- إزيك يابا الشيخ يونس.

لم يقف جدى، بل أمسك برغيف بلدى حمرته تفتح الشهية، واقتطع منه لقمة كبيرة وغمسها فى البامية، وقال بملامح حادة ووجه كاشر:

- تعالوا كُلُوا.

جلس أبى والرجل على الدكة، بينما السعفاء دخلت بيت جدى المكون من طابقين من الطوب اللبِن، وبوابة كبيرة وعريقة، أما أنا فبجرأة لم أتعود عليها خطوت نحو الطبلية، وبجوار جدى جلست، وعلى استحياء بدأت أمسك رغيفًا، وأقطع منه لقمة، مسك جدى الرغيف من يدى، ووضعه على الطبلية، وأعطانى بدلاً منه قطعة خبزٍ كانت أمامه عليها أثار الطبيخ، مسكت القطعة، وكسرت منها لقمة غير متأفف، وبدأت أغمس لقمة الخبز المصنوعة من القمح الصافى بالبامية المطبوخة بالسمن البلدى، أعجبنى طعم البامية فانشغلت بها عن الجميع، ولم أنتبه إلا على صوت خالتى نعمة وهى تقدم وزة عفية محمرة بالسمن البلدى، تملأ (صحن الفتة الكبير)، وتقول لجدى:

- أمى ع تقولك خلى نايب البنات.

- البنات مالهمش نايب.

لم ترد خالتى على جدى، ولم تظهر ضيقا أو استياء، وعادت للداخل، نظر أبى ناحية الأرض، حملق الرجل صاحب الفرسة فى شعر خالتى نعمة الناعم جدًّا كشعرالفرسة، والذى يتدلى من الإيشارب الملون لأسفل مؤخرتها كشلال ماء عذب، وحملق فى أردافها الناعمة البيضاء الذى ظهر الهلال عليهما هلالين، وانشغل جدى بتمزيق الوزة، فكان كلما قطع قطعة من لحمها يرميها فى فمه، وبين الحين والآخر كان يعطى جناحًا لأحد أخوالى ثم يستأنف تمزيق الوزة، ورمى لحمها فى جوفه حتى امتلأ وجهه بحبات العرق،

وازداد احمراراً، سال ريقى على قطعة لحم من لحم الوزة المحمر الشهى، وأبى يشعر بما أنا فيه بشفقة وعطف حتى لاحظ أكبر أخوالى ذلك، وقال لجدى بصوت مرتعش خائف بالرغم من أنه واحد من المطاريد وقضى نصف حياته فى الجبل، كوّن عصابة أو عصاية كما نسميها بهدف السطو على بيوت الأغنياء، ثم هداه الله، وتزوج بنت عمه، وهجر الجبل:

- ادّى الواد دا حتة لحمة يا حاج.

رمقه جدى بنظرة غاضبة، ثم وضع يده فى صحن الفتة الذى يضم الوزة، ثم رفع يده ناحيتى، ودس فى يدى شيئًا، فى فرح فتحت يدى وإذ بى أجد قطعة عظم ملفوفة فى الفريك، نظرت فى الصحن فلم أجد جدى قد أبقى على أى شيء، لقد أكل الوزة، ولم يتبق لى سوى الفريك، وقطعة العظم، قلت لنفسى لا بأس، وظللت أستمتع بطعم الفريك حتى سمعت الرجل صاحب الفرسة يقول لجدى فى استفهام:

- هو أبو ضيف زعّل نعمة تانى؟

- هاطلّقها منه يا شيخ صديق.

هكذا رد جدى على الرجل، وهو يستدير، ويشمر ذراعيه، ويستقبل ماء الإبريق النحاسى المغلى، ويغسل يديه، وفمه بالماء والصابون ثم يمرر يديه على بطنه التى امتلأت لآخرها ويقول:

- لاااااااااه.. حتى الوز ما عادش فيه بركة..

وفجأة وجدتنى أنا المؤدب الهادئ أضحك من كل قلبى ضحكة عالية طويلة جعلت جدى ينظر لى بغضب شديد، وقبل أن يدهسنى تحته كجمل داس على نملة، وجدت أبى يقف بسرعة، ويدفعنى برفق ناحية البوابة، ويقول بصوت غاضب مرتفع:

- غور خش عند ستك.

مسرعًا تجاوزت الرهبة، ودخلت من البوابة، لفت نظرى وجود ليف نخل وحبال كثيرة بجوار شاغر الناقة الذى اعتدت رؤيته فى هذا المكان، أدركت ساعتها أن جدى يستعد لموسم حصاد القمح، تجاوزت الحبال، وبدأت الدخول فى الحوش، وجدته خاليًا، نظرت ناحية حجرة الفرن والكانون فرأيت جدتى السمراء النحيلة تصب البامية من حلة نحاسية لامعة فى طبق صينى على طبلية تلتف حولها وهى تجلس القرفصاء، وأمى وخالتى نعمة وأختى السعفاء وزوجة خالى الأكبر، عندما لمحتنى جدتى داخلاً نادت علىّ، أخذتنى تحت إبطها، وقبّلت يدى ورأسى فى حنان، ثم وضعت يدها فى حلة تحت الطبلية، أخرجت كبدة الوزة المحمرة فى السمن، قسمتها وأعطتنى نصفها، ومدت لأختى السعفاء النصف الآخر لكن أختى السعفاء كانت منشغلة مع خالتى نعمة بوضع قليل من الماء مع قليل من السكر مع قليل من الليمون فى حلة صغيرة، وترك هذا الشىء يغلى، كانت خالتى نعمة تأكل لقمة وتنظر للحلة الصغيرة على الكانون، تأكل وتنظر حتى تحوّل الماء والليمون والسكر إلى مادة تشبه الملبن، طلبت جدتى من خالتى نعمة أن تترك هذا الشىء حتى

يبرد، وتكمل طعامها، لكن خالتى نعمة أكّدت أنها شبعت، ثم مسكت هذا الشيء الذى يشبه الملبن، وظلت تشده وترخيه، وهى تحكى عن أنها لم تعد تطيق الحياة مع زوجها "أبو ضيف" وأخته فتنية، ففتنية -على حد قولها- امرأة شريرة تكره كل الناس، قُتِل زوجها وترك لها ولداً وقاطعت بعده الزواج، أو على حد قولها حرّمت الرجالة، واكتفت بأن تعيش مع أخويها أبو ضيف وخلف، وتعتبرهما ولديها، لهذا عندما علمت أن بنت عمها نعمة الجميلة زوجة أخيها "أبو ضيف" غير قادرة على الإنجاب قررت تطفيشها وإجبار أبو ضيف على تطليقها والزواج بغيرها، لهذا جاءت خالتى غاضبة إلى بيت أبيها، وهى تقسم إنها لن تعود لبيت أبو ضيف مهما حدث..

كنت ألوك كبدة الوزة المحمرة باستمتاع وأنا أتأمل خالتى نعمة، طولها الرائع، وعرضها النموذجى، وبشرتها العفية، وشعرها الناعم الطويل، ورائحتها المثيرة، وسمانة ساقيها الممتلئة النظيفة اللامعة، صدرها الذى كاد يمزق جلبابها المنقوش بالورد، كنت أتأمل كل ذلك وأسأل نفسى:

- كيف أن امرأة بكل هذا الجمال ولا تنجب؟

بعد شد وجذب نجحت خالتى نعمة فى أن تحصل على قطعة عجين صغيرة، أمسكت بها فى يدها اليمنى، وبمساعدة أختى بدأت السعفاء تضع هذه العجينة على وجه أمى فتلتقط العجينة الشعر النابت، كان الشعر غزيراً، ويصبح وجه أمى أكثر بياضاً وجمالا

بعد أن كان أسود، لكن أمي بين الفينة والأخرى تبعد يد خالتى، وخالتى تكرر وضع العجينة على أجزاء أخرى من جسم أمى، حتى أزاحت خالتى وهى تضحك وتبتسم طرف جلباب أمى عن ساقها الأيمن، وأمى ترفض وتضحك، وفجأة سمعت أختى السعفاء تقول :

- اعملي لى أنا يا خالتى.

ضحكت جدتى وخالتى وزوجة خالتى على أختى السعفاء، وشتمتها أمي، لكن السعفاء وقفت، وفكت الإيشارب، وكورته، ورمته فى حجر خالتها نعمة بسرعة، وبسرعة أخرجت ثديًا ممتلئًا وعفيًّا، لونه لون الزبدة، فى مقدمته حلمة لونها بنى، ولكنها أصغر من حلمة أمي بكثير، فحلمة أمي كبلحة ناضجة، وحلمتها كحبة قمح متفحمة، وقالت :

- أنا ما صغيراش.

ضحكنا كلنا، وفجأة صمتنا عندما سمعنا وقع خطوات جدى قادمة، وبسرعة خبّأت السعفاء ثديها وأمى ساقها وخالتى عجينتها، وبسرعة نظرت للبوابة، ووجدته قادمًا كأسد، وخلفه الرجل صاحب الفرسة الشيخ صديق، وما أن اقترب منا حتى قال لأمى بصوت غليظ وملامح متجهمة :

- قومى روّحى لجوزك وعيالك.. قومى.

وقفت أمى مسرعة فى خوف شديد، ووضعت أختى الرضيعة على صدرها، ونفضت التراب العالق بمؤخرتها، ومشت، وخلفها أختى السعفاء، بينما أنا خطوت نحو جدتى، وجلست فى حجرها،

فلقد كنت أرغب في البقاء لمعرفة ما سيدور بين جدى وخالتى نعمة والشيخ صديق، لكن جدى صرخ فى قائلا:

- غور روّح مع أمك.

ومسرعا مثل ثعبان يتلوى خرجت من بيت جدى قبل أن تمسك بى يده التى تشبه كتلة من الصخر، ويفعصنى بين أصابعه القوية كما يفعص حبات القمح حجر الرحاية..

(٧)

(الرجل القصير الذى لم يزد طوله عن التسعين سنتيمتراً، اسمه فهيم العقيلى، لديه أحد عشر ولداً، وبنت واحدة، ذات مساء جمعهم لكى يضع لهم دستور حياتهم، وبحضور أمهم أقسم بأغلظ الأيمان بأن من يموت من أبنائه الذكور ميتة طبيعية، ولا يموت مقتولاً، سيتبرأ منه، وسيعدُّه "ابن حرام"، لهذا إن رأيت أحد أبناء فهيم فامش مسرعًا، لا تتلفت، ولا تحك أنفك، ولا تتنهد، وافعل ما تؤمر به تنج بحياتك، فأولاد العقيلى لا يقلون عن أبيهم فى شىء، نفس القسوة والغلظة والجبروت والقلب الميت)

(٨)

عدت من المدرسة حاملاً حقيبتي القماشية الممتلئة بالكتب والكراسات ورغيف طابونة وقطعة طحينية كانوا يسلمونها لنا فى المدرسة، ساقاى عليهما تراب، وبطنى فارغة، وضعت الحقيبة على الحصيرة المفروشة وجلست، طلبت من أمي الغداء فأمرتنى بأن آكل قطعة الطحينية والرغيف الذى أستلمه من المدرسة، وبالرغم من أننى لا أحب الطحينية، وأحب أن أعطيها لأحد إخوتى الصغار الذين ينتظرون رجوعى من المدرسة فرحين ومعى الحلاوة الطحينية، والجبنة النستون، فإن خوفى من لكمات أمى جعلنى أفتح الحقيبة، وأخرج الرغيف والطحينية، وآكلهما، نظفت أمى الكنكة، ووضعت الماء بقدر كوبين، ووضعت الشاى والسكر، ولملمت بعض الوقود، وأشعلت النار، وحملت بيدها الكنكة فوق النار، وقبل أن

أنتهى من الرغيف كان الشاى قد غلى، صبت أمى الشاى فى كوبين، أعطتنى واحداً، وأخذت الثانى، ولم تنتظر حتى يبرد قليلا، إنما بصوت ارتشافها العالى للشاى كانت تشرب، مما شجعنى لأن أشرب الشاى ساخنًا..

فتحت حقيبتى، وأخرجت كراستى وكتاب الحساب، وقلت أكتب الواجب، وما إن بدأت حتى وصلت إلينا طرقاتٌ على البوابة، ومن دون أن تسأل عن الطارق قالت أمى بصوت مرتفع:

- امش يا بايظ انت وهوّ.

كانت أمى تعرف أن الطارق زملائى، وأنهم يريدوننى لكى نذهب معًا إلى الجبل لنلعب الكرة كعادتهم، لكن أمى لديها رغبة فى أن أتعلم مثل أكابر بلدتنا، وهى ترى أن اللعب يفسد التعليم، وأن تفوقى فى المدرسة سببه عدم اللعب مع هؤلاء، ولكى لا أتلقى لكمات من أمى عكفت على كتابة الواجب بخطى الجميل، وعندما انتهيت أمرتنى أمى بأن آخذ المنديل الذى به رغيفان وقطعة جبن قديمة وبصلة، وأذهب إلى والدى، وبالفعل أخذت المنديل، وخرجت.

كان الوقت ظهراً، وكانت الأرض ترسل جحيمًا لا تحتمله قدماى، وكان منظر الترعة مغريًا، وأنا أسير بجوارها، قلت لنفسى لماذا لا أحضر السنارة من العشة التى بناها أبى على رأس حقلنا؟ ولماذا لا أُخرِج قليلاً من الطعم من تحت تينة بيت الحاج؟ لم أتردد، وذهبت للعشة فوجدت أختى السعفاء تحرس الحقل، فأخبرتها بأننى

سآخذ السنارة وأذهب للصيد، لكنها عندما رأت منديل الغداء حذرتني من ذلك، وهددتني بأن أمي ستضربني، لم أكترث، وأخذت السنارة، واستخرجت الديدان الحمراء اللزجة التي أستخدمها كطعم للسمك، ومسرعًا ذهبت إلى الترعة، وتحت السنطة التي اعتدت الصيد تحتها، وعلى الرغم من خوفي من العفريت الذي يسكن تحتها، والذي يطلع في الليل، وهو يقود محراثًا آليًّا من النار يأكل كل من يطلع له، جلست، مرت دقائق، ولم يتحرك مؤشر السنارة الأبيض الذي هو عبارة عن قطعة صغيرة بيضاء من عود ذرة رفيعة بعد تقشيره، ضحكت عليَّ أختي السعفاء، وظلت تحكي عن "أبو سمكة" ، الرجل المسكين الذي قتله خليفة في أيام الجفاف منذ عامين، وبعد أن قتله وسال دمه وتمزقت أحشاؤه أخذ سمكه الذي صاده، ومن يومها والسمك حزينٌ لمقتل أبو سمكة المسكين، تعاطفت مع هذا الرجل، وسألت السعفاء عن إمكانية عودة السمك للترعة، فقالت سيعود عندما يأخذ أهل أبو سمكة ثأره من خليفة، مرت دقائق ومؤشر السنارة لم يتحرك، فسحبت السنارة، ولففت خيطها، ثم خلعت جلبابي وملابسي الداخلية، وبالرغم من تحذير السعفاء بأن أمي ستضربني لو نزلت في الترعة، فإنني قفزت مشتاقًا لماء الترعة المنعش، وظللت أعوم وأغطس وأسبح حرًّا سعيدًا، ثم خرجت إلى البر واستلقيت على التراب الساخن جدًّا، ومنتشيًا ظللت أتدحرج على التراب الملتهب وأنا أتشمم رائحته الغريبة حتى صار بدني كله أسود من كثرة

التصاق التراب بجسدى الأسود الناحل، عندما تأكدت من ذلك قفزت فى الماء مرة أخرى، ثم طفوت، ثم سبحت، لاحظت السعفاء سعادتى فرفعت طرف جلبابها المنقوش بالورد، ونظرت يمينًا ويسارًا، وعندما لم تجد أحدًا يمينًا أو يسارًا خلعت جلبابها، وبقيت بقميصها الوردى الداخلى القصير المصنوع من القطن، وبسرعة قفزت فى الماء، وعندما طفت على سطح الماء بشعر مبلول ووجه مسرور وقميص ملتصق بجسدها الفائر، عندما طفت، وهى كذلك، رأيت سعفاء أخرى، سعفاء لم أرها فى حياتى، سعفاء المنتشية، سعفاء الحرة، سعفاء الجريئة، سعفاء التى هى أشبه بملاك له جناحان، هما الأنوثة والجرأة، لدرجة أننى شعرت بالخجل من النظر إليها، فنظرت إلى الشاطئ، وإذ بى أرى كلبًا يقترب من المنديل، يتشممه، يسيل لعاب الكلب على المنديل، يأخذ الكلب المنديل الذى به غداء أبى، ويجرى مبتعدًا، وأنا أتوسل إليه كي يترك المنديل، وهو أذن من طين والأخرى من عجين، وأختى السعفاء تضحك وهى تستقبل بصدرها الماء المنعش البارد القادم من الجنوب، وتذكّرنى بما سأناله من أمى من ضربات ولكمات ولعنات نتيجة إهمالى لمنديل الغداء الذى خطفه هذا الكلب القذر قاسى القلب الذى لا يرحم، وجرى، وعلى مسافة ليست بعيدة سيجلس ويمدد ساقيه، ويفتح المنديل، ويخرج الخبز والجبنة، ويأكل مطمئنًا تاركًا لأبى الجوع يقطّع أمعاءه، وتاركًا لى صفعات ولكمات أمى القاسية..

(٩)

«إن أخبرك أحد أهالى قاو بأن البدرى، الابن الثالث لفهيم العقيلى، دخل مندرته الكبيرة، وبكى كالأطفال، وأهال التراب على رأسه كالنساء، وعندما سأله والده عن سبب بكائه، أجابه البدرى بأن اثنين من إخوته قتلا، فصدّق من يخبرك، وابحث بسرعة عن مخبأ، ولا تخرج من البيت أبداً لأن فهيم العقيلى سيعطى البدرى ابنه بندقية آلية، ويعطيه مهلة قصيرة لا تزيد عن ساعات ليأخذ ثأر أخويه، وإلا سيقتله بيديه ويشيع فى البلد أنه قتله لأنه قتل أخويه، ولأن المهلة ستكون ساعات معدودات سيخرج البدرى، وسيبحث عن أى شخص يقتله، نعم أى شخص، ثم يعود برأسه لوالده، ويقول إنَّ صاحب هذا الرأس هو قاتل أخويه، ولكى لا تكون أنت

المقتول، ويضيع عمرك سدى، أرجوك ابحث عن مخبأ، ولا تخرج من بيتك مهما يحدث، ولا تفتح بوابةً، ولا تنظر من نافذةٍ، ولا تضئ حجرةَ نومك لكى لا يلمحك، وكى لا يضيع عمركَ هباءً منثوراً)

(١٠)

أمى لديها قدرة غريبة تعرف بها الذى ينزل الترعة، والذى يلعب الكرة فى الجبل، أو فى الجرون، أو فى أى رهبةٍ دون أن تراه، هى فى كل مرةٍ أنزل فيها الترعة، وأعود للبيت، بنظرةٍ واحدةٍ تتفحَّصنى، ثم تقول:

- وشك محيّب.

وتمسك سباطة النخل اليابسة، والتى تستخدمها فى كنس البيت والرهبة التى أمامه، وتنزل فىّ ضربًا، السباطة تلسع بدنى لسعًا مؤلمًا، وأنا أتوسل لها أن تتركنى، وعلى الرغم من أننى ولدها الكبير الذى جاء بعد ثلاث بناتٍ، وقبل بنتين وولدين، فإنها لا ترحم توسلاتى، لهذا فكرت فيما حدث، ووجدت أننى أخطأت خطأين، خطأ الاستحمام فى الترعة، وخطأ ضياع المنديل الذى به

غداء أبى، وقلت لنفسى لو رجعت إلى البيت ستضربنى أمى ضربًا قاسيًا، لهذا أخذت أختى السعفاء التى وافقتنى الرأى، وذهبنا إلى الغيط، كان فتحى نعورة قد أعطانا بعض ثمار التين البلدى الأسود المسكَّر من شجرة التين التى زرعتها أمه فى حقلهم الصغير، مشينا متلكئين ونحن نأكل حبات التين، وعندما وصلنا حقلنا الواسع، وجدت أبى يجلس بسرواله الأبيض الممتد إلى الركبة، والصديرى الأبيض مسترخيًا فوق كومةِ قمحٍ، وبجواره الشرشرة التى يحصد بها، يجلس مع عمى محمود بجلبابه الأنيق، وشاله المزهر، وحذائه الجلدى، وعصاه الخيزرانى الأعوج الأنيق، وابنه أحمد الموظف حديثًا فى مجلس مدينة البدارى، وكانوا يستريحون من تعب الحصاد قليلاً، وبخاصة أن الشمس حارقةٌ جدًّا، لفت نظرى أن عمى محمود يحكى عن خليفة الذى قتل الرجل المسكين أبو سمكة، ويقول إن خليفة بعد أن قتل الرجل المسكين أبوسمكة، وأخذ أسماكه التى اصطادها، زاد فى طغيانه، واستفزازه، وقام بحرث ربع فدان يملكه أبو سمكة، وقام بزراعته لنفسه، وقطع الماء عن أرض عبد الرسول كبير عائلة أبو سمكة، ومشى فى البلد يشيع أن عائلة عبد الرسول لم يعد فيها رجالٌ، وأنه يذهب يوميًّا، ويضع الخراء على بوابة بيت عبد الرسول، ويسبّهم، ويعايرهم، ويستفزهم، وأنه يسير فى عز الظهيرة مرفوع الهامة، فاتح الصدر فى تحد سافر لعائلة أبو سمكة، لدرجة أن هانم، أرملة أبو سمكة، كانت لا تنام كل ليلة إلا إذا أحضرت "موس" وقطّعت جلد جبهتها، وسال دمها

الأزرق الذى يسبب لها صداعاً قاتلا على وجهها، وكانت كلما رأت رجلاً أوشابًّا أو شيخًا من أقارب أبو سمكة، تهدده بأنه إذا لم يأخذ ثأر زوجها ستأخذه هى، وكانت صباحًا ومساءً تستفز ابنها عواض الذى لم يتجاوز العاشرة، وتطالبه بأن يأخذ ثأر أبيه، وترجوه أن يأتيها بذراع أو رأس خليفة المفترى قاتل زوجها، كان أقارب أبو سمكة حريصين على أن يأخذوا ثأرهم بأيديهم قبل أن تأخذه هانم التى سبق وأخذت ثأر أخيها عندما كانت تترك زوجها أبو سمكة نائمًا وتتسلل ليلاً إلى قرية النواورة المجاورة لقريتنا وادى الشيح، وعندما يسأل من يراها زوجها عنها، وعن سبب خروجها متخفيةً ليلاً، كان يقول إن أمها مريضةٌ، وإنها تذهب للاطمئنان عليها، حتى إنها أخيراً قتلت قاتل أخيها، ووقفت على جثته، وقالت للجميع، وبأعلى صوتها، إنها أخذت ثأر أخيها، فيرد عليه أبى، وهو يلف سيجارة من علبته الصفيح قائلا:

- خليفة افترى ويومه قرّب.

مسكت السعفاء شيكارة قديمة، وبدأت فى جمع سنابل القمح الواقعة على الأرض، هكذا تفعل البنات فى كل محصول، سواء فى جنى القطن، أو فى حصاد القمح، وخطت خطوات مبتعدة عنهم بالرغم من أنها تحب الاستماع -مثلى- لحكايات عمى محمود، فهو حكاءٌ رائعٌ، وعمٌ ودودٌ. المهم، أخرج عمى محمود علبة سجائر بلمونت، وأعطى أبى سيجارة، وأشعل الأخرى لنفسه، أما أنا فقررت أن ألحق بالسعفاء وأجمع معها السنابل، لحقت بها والتقطت

بعض السنابل، وعندما هممت بوضعها فى الشيكارة أخبرتنى السعفاء بأنها تكره اسمها، وأنها قررت أن تخرج منه، فهو يخنقها، حذرتها من ذلك، وذكرتها بتحذير أبى لها المتمثل فى أنها لو غيرت الاسم سوف تموت أو تصاب بسوء على أحسن الأحوال، لكنها ضحكت وقالت: أنا هاخد القمح اللى فى الشيكارة ده وهادقه فى البيت، وآخد اللى يكرمنى بيه ربنا وأروح أبيعه فى البدارى، وبتمنه هاطلع ع السجل المدنى وأقولهم غيّروا لى اسمى من السعفاء لصفاء، حذرتها مرة أخرى، فأخبرتنى بأن الأمر انتهى، وأن من يناديها من الآن باسم السعفاء فلن ترد عليه، وأخبرتها بأننى سأناديها بصفاء، ففرحت، وبسرعة رحت لأخبر أبى وأعمامى بما قررته صفاء، وما أن وصلت حتى وجدت عمى يحكى قائلا:

- عبد الرسول واعر.

هز أبى رأسه مؤكداً كلام عمى محمود، ثم بدأ عمى محمود يحكى عن الشيخ صديق الذى قرر أن يتزوج خالتى نعمة، وأن جدى يونس أمر ابن أخيه أبو ضيف بأن يطلقها، وأن أبو ضيف الذى يحب خالتى نعمة لدرجة العبادة وافق على الطلاق تحت ضغط أخته فتنية التى ترغب فى زوجةٍ أخرى لأخيها قادرةٍ على الإنجاب، وخوفاً من عمه الشيخ يونس، وقال إنه بعد أن طلقها ظل ثلاثةَ أيامٍ فى حجرته لا يأكل ولا يشرب ولا يفعل شيئًا غير البكاء عليها، ولم يكف عن البكاء حتى جاءت له أخته فتنية بزوجة أخرى أجمل من نعمة، وقال أيضًا إن الشيخ صديق البالغ من العمر خمسين عاماً،

وعد الشيخ يونس بأن يبنى بيتًا جديدًا لنعمة، وأن يطلِّق زوجته وبنت عمه نعوس بعد زواجٍ دام ما يقرب من ثلاثين عامًا، وأثمر ولدين بالغين، وخمس بناتٍ منهن بنتان متزوجتان.

رفع أبى قلة الماء على فمه، شرب وكركر الماء وبلّ صدره والصديرى والفانيلة، ثم أمسك الشرشرة، وحكها بشرشرة أخرى كانت بجوار عمى بهدف أن تكون حادةً، ثم اعتدل ليستأنف الحصاد قائلا:

- والله غلطان.

دافع عمى محمود عن الشيخ صديق، وعن صبره على زوجته القديمة نعوس، وعن قلة جمالها، وعن حقه فى أن يتزوج امرأةً جميلةً مثل نعمة، امرأة لا تنجب، ولا تسبب مشكلات له ولأولاده، لكن أبى الذى كان فى البداية، عندما خطب أمى، يرى أن كل شىء لديهم جميلٌ، حتى كلبهم، لكنه الآن، وبعد ما يقرب من عشرين عامًا لم يعد يطيق أمى ولا جدى بسبب مشكلاتهم الكثيرة، لهذا قال أبى فى حرقة:

- الناس دول ما يتناسبوش.

وقبل أن يخطو أبى ناحية الحقل، وقبل أن أتمكن من الهمس له بما قررته السعفاء من تغيير لاسمها من السعفاء لصفاء جاء عمى الأكبر رضوان بعوده الناحل، وظهره المحنى، ومنديله فى يد، وباليد الأخرى يمسك جانبه الأيسر، وخلفه منازع ابن عمتى بجلبابه الأبيض الأنيق يتحسس طريقه، قال عمى رضوان لأبى:

- استنى ؛ عايزك .

عاد أبي وجلسوا ، وحكى عمي رضوان عن آخر وصفاته البلدية التي يستخدمها لكي يشفى من المغص الكلوى الذى يلازمه ، قال عمي رضوان إنه أحضر طلع النخل الأبيض ، وغلاه مع النمل الفارسي الأسمر ، ومع جلد الضفادع البالغة ، وكوّن خلطة وشربها كاملة ، وأكَّد أنَّه بعد ذلك شعر بارتياحٍ شديدٍ ، ولم يعاوده المغص ، ضحكنا جميعًا ، وعندما عادت أختي السعفاء بشيكارة ممتلئة بسنابل القمح التي جمعتها من على الأرض ، نظر لها عمي رضوان وقال لعمي محمود ولأبي :

- منازع عايز يتجوّزالسعفاء .

بغضب ضربت السعفاء "منازع" بشيكارة السنابل ، وأكدت لأبي أنها لن تتزوج هذا الأعمى البخيل القذر ، وانصرفت غاضبة إلى البيت وهي تردد أن اسمها من الآن صفاء وليس السعفاء ، وأنها لن تتزوج منازع ، لكن أبي الذى يخاف على غضب أخته أم منازع ، ومن مطالبتها بنصيبها في الأرض وفي البيت ، يربت على كتف منازع في أبوة جعلتني أسأل نفسي : هل سيجبر أبي ابنته السعفاء الصغيرة الجميلة خفيفة الدم التي يحبها أكثرمن كل بناته ، على الزواج من منازع الذى يشاع عنه البخل والقذارة وإصابته بالعشى الليلى ! هل سيجبرها ؟ وهل سيكون في هذا الزواج نهاية السعفاء كعقاب لها على إقدامها على تغيير اسمها ؟

(١١)

(لو سمعت من أحدٍ أن فهيم العقيلى ذاهبٌ إلى أرض الحجاز ليحج فلا تندهش، فالقتلة والمطاريد والمرابون والسحرة والظالمون فى قريتنا كلهم أدُّوا فريضة الحج، وكلهم يمسكون مسبحةً فى أيديهم، وكلهم نقش النقاشون على واجهات منازلهم رسماً للكعبة والسفينة، وكتبوا (حج وزار بيت الله الحرام) الحاج فلان، وكلهم يقال لهم: يا حاج!)

(١٢)

في أوقات الهم والغم يفقد كلّ شيءٍ حلاوته، الشاى يفقد طعمه الفريد الممتع، والطيور المحمرة في السمن البلدى تأخذ طعم التراب، والشفاه التى تعطى للحروف جاذبيةً وجمالاً تفقد جاذبيتها وجمالها، الضحكات تصبح بلا دفءٍ، والكلمات تفقد ملحها، وتصبح ماسخةً، الحيطان تفقد دفأها، والعشش تفقد ظلالها، والنسائم تفقد سحرها، واللمة تكون وليمةً للصمت والكآبة والوجع، هكذا صار حال بيتنا منذ طلب عمى رضوان من أبى يد أختى السعفاء لمنازع ابن عمتى، أصبحنا نجلس صامتين كمن يجلس في جنازةٍ، السعفاء دائماً تضع وجهها الذى كان لا يخلو من البسمة، تضعه وهو يحمل حبات الدموع المخلوطة بالكحل والحلم في حجرها، وتنظر لأسفل ساعاتٍ طويلةً، وأمى لا تطيق

النظر فى السعفاء، وأبى لا يطيق النظر فى وجه أمى، وعمى رضوان وعمى محمود لا يطيقان النظر فى وجه أبى، وأبى يريد وضع النقاط على الحروف، لهذا ذهب إلى جدى، وطلب رأيه فنصحه بأن يزوجها، ويرتاح منها، فالبنات ليس لهن إلا الستر، وعمى محمود رأيه من رأى جدى، وعمى الأكبر رضوان رأيه من رأيهما، وأمى أيضًا ترى أن زواج البنت سترٌ لها، وبخاصة بعد أن تركت السعفاء المدرسة، باختصار، أجمع الكل على زواج السعفاء من ابن عمتها منازع، لكن السعفاء قالت إنها لن تتزوجه، ولو أجبروها على ذلك ستسكب الكيروسين على رأسها وجسمها، وتشعل النار فى نفسها، هكذا قالت وأعلنت للجميع؛ لم يكترث أبى وأمى بتهديدات السعفاء، وقالا بدون اهتمام إنَّه كلام بنات، وإنها ستتزوج منازع غصبًا عنها، وإن رفضت ستقطع رقبتها، هكذا قال أبى وعمى رضوان وعمى محمود، لكن أمى التى كانت تبدو فى غاية القسوة والقوة رشتنى بكبد الحمام والأوز والبط المحمر المملح الشهى والفريك الغارق فى السمن، وهمست لى طالبةً منى أن أراقب أخواتى البنات، وهن يجمعن الحشائش، أو يصيفن سنابل القمح، أو يحرسن حقل الخضروات الذى يملكه والدى، وهمست لى بأنها لا تستريح للبنت حسنية بنت عبد النعيم صاحبة السعفاء، وقالت لى أيضًا إن جسمها لا يقبل هذه الفتاة، تعجَّبت من هذا الكلام، فحسنية طيبةٌ ومسكينةٌ وودودةٌ، وعلى الرغم من اقتراب امتحان نهاية العام، وحرصى على أن أكون من الأوائل، فأنال رضا

أمى، وأرحم نفسى من لكماتها القاسية، ومن قسوة الشمس، وصعوبة العزق والزرع والحصاد وجمع الحشائش ودق الذرة وجرس القمح وحمل التبن، والأهم أن أقضى بعض الوقت مع عطيات بنت عمى رضوان التى أحبها وتحبنى، ويزداد حبنا توهجا كلما اقتربت الامتحانات، فهى ليست جميلةً، وليست قبيحةً، لكنها خفيفة الدم، وأنا لست جميلاً، ولا وسيمًا، لكننى -فقط- متفوقٌ فى المدرسة، أنا أبحث عن خفة الدم والأنوثة، وهى تبحث عمن يغششها، أكتب لها الواجب فى العشة، فتمسك يدى بيديها غير الناعمتين، وأحس بشىء غريب يسرى فى عروقى، متعة لم أشعر بها فى حياتى إلا معها، فى اليوم التالى تذهب بالواجب مكتوبًا إلى المدرسة، وتأخذ نجمةً من المدرس، أو عشرة من عشرة، وتأتى سعيدة إلى العشة معها حلة وطبق وسكين وزبدة وملح وكمون وفلفل أسود وخبز، وتصطاد لنا زرزورةً، وأحيانًا قمريةً، وتذبحها، وبمهارة تنتف ريشها، وتضعها فى الماء المغلى ثم تطبخ لنا ملوخية، وتحمِّر القمرية أو الزرزورة فى السمن كما تفعل أمى تمامًا، ثم ترش عليها ملحًا خفيفًا، وتُؤكِّلنى بيديها فى حبٍ، ثم تتقمص دور العروسة، فتكحل عيونها بمرود الكحل الخشبى النظيف الخاص بها، وتمشط شعرها بفلايةٍ خشبيةٍ لها أسنانٌ من الناحيتين، وعليها بعض آثار دماء القمل، تمشط مرات ثم تُخْرِج القمل من بين أسنان الفلاية مختلطا ببقايا شعرها الناعم، وبأظافرها تضغط القملة بين الفلاية والأظافر، أسمع طرقعة انفجار بطن القمل، تمسح الفلاية،

وتنظفها جيداً، ثم ترفع جلبابها المنقوش بالورد عن ساقيها الجميلتين، وتطلب منى أن أنزع سروالى، وأحياناً تنزعه هى برفق وأنوثة، ثم تفرش أكياساً وجلابيب قديمةً على أرض العشة، وتنام على ظهرها، وتطلب منى بصوتٍ ناعمٍ هامسٍ رقيقٍ أن أنام فوقها، ثم (......) وأنا فى غاية النشوى والاستمتاع، آخر مرة وجدت شيئاً أبيض كبقايا الجبن القريش حول عضوى وعضوها، سألتها عنه، قالت وهى تضحك فى خبث :

– ما عارفاشى.

لكن استمتاعى بهذا الشىء جعلنى أفرح، وجعلها تفرح، ووعدتنى بإن أنا غششتها فى امتحان الصف السادس الابتدائى، ونجحت، ستجعلنى ألعب معها لعبة العريس والعروسة التى أحبها كل يومٍ، وستجعل هذا السائل الأبيض يتكوُّم أكثر وأكثر..

أنا لا أحب الفتنة على أخواتى البنات، ولا أحب أن أرى أمى وهى تضربهن بقسوةٍ، وبخاصةً أختى السعفاء، فهى تحبنى، وتعطينى من كل شىء يقع فى يدها، وتدافع عنى إنْ همّت أمى بضربى، لكننى عندما تذكرت حبيبتى عطيات، وعرفت أن هذه المهمة ستتيح لى الخروج من البيت والغياب فترةً طويلةً بدون ضربات من أمى، رحَّبت بالمهمة، ووعدت أمى بتنفيذها على أكمل وجهٍ، وبدأت بالفعل فى وضع خطةٍ لمراقبة البنات، وبخاصةً أختى الحبيبة السعفاء، وجارنا فى حقل الخضروات فتحى نعورة، وصديقتنا حسنية البنت اللعوب التى لا تستريح لها أمى، ولا تقبلها على الإطلاق..

(١٣)

(إن قال لك واحدٌ من الناس إن الحاج فهيم العقيلى عاد من الحج، وأنْ أهل القرية هرولوا ليباركوا له، وليشاهدوا الجدارية التى رسمها فى واجهة بيته رسامٌ مشهورٌ أتوا به من مصر، وأن الحاج فهيم أخبرهم بأن حجه هذا العام غير مقبولٍ، وذلك لأنه عندما ذهب ليرمى الجمرات، أمسك بجمرةٍ، وعندما هم بضرب الشيطان، قال له الشيطان معاتباً:

- بقى كده يا فهيم؟ تقتل أخوك يا فهيم!

وإنْ أبلغك أحدٌ بأنه سيأخذ أحد أبنائه فى الموسم القادم ليرمى الجمرات بدلاً منه، فصدِّقه، ولا تعترض، وأظهر اقتناعك التام، ورضاك الكامل، واطلب منه أن يقرأ لك الفاتحة هناك)

(١٤)

أيقظتنى أمى عندما كانت أشعة الشمس تزيح الظلام بقوة، وصوت العصافير يزيح عواء الذئاب، وهمهمات الضباع ببطءٍ، والنسوة فى البيوت يطردن الكسل، ويزرعن النشاط والحيوية، وفى طشت من الألومنيوم أمالت أمى رأسى بقوة بيدها اليسرى، وباليمنى كانت تغرف الماء المغلى من حلة تغلى فوق الكانون الطينى، وتصب الماء المغلى على رأسى، وأنا أستغيث، لكنها لا تبالى باستغاثاتى، وزيادة فى غيظى كانت تدعك رأسى وعينى بصابون الغسيل الحارق للعينين، والكاوى للبشرة، ثم أخذت رأسى، وبحجر جلبابها نشّفته من الماء، ثم أجلستنى على حصير الحلفا، وبالفلاية الخشبية مشطت شعرى الأكرت، وقتلت ما به من قملٍ، ثم صبت كوبًا من الشاى بالحليب، وأعطته لى، ثم أعطتنى

قطعتى فايش، وهى توصينى بضرورة التركيز وأنا أجيب على الامتحان، طمأنتها، وبدأت مزج الفايش بالحليب، وعندما رفعت رأسى قليلاً كى لا تسقط قطرات الحليب على صدرى، وتضربنى أمى ضرباتٍ مباغتةً قويةً، وجدت وجه أمى صار عابسًا، نظرت لمدخل البيت، ووجدت عطيات قادمةً، ومعها نصف مسطرة خشبية، ونصف قلم جاف، وربع أستيكة، قالت صباح الخير وهى تبتسم ابتسامتها الساحرة، رددت عليها سعيدًا بينما أمى ردت بدون نفس، فأمى تكره جملات أم حبيبتى عطيات، زوجة عمى الأكبر رضوان، ولا تطيق النظر إليها، ولا إلى ذريتها بالرغم من أنها بنت عمها الأكبر منها، فلقد حدث منذ عشر سنوات أن محمدًا - أخو جملات- كان معه جمل أكل من برسيم "مايز" زوج فتنية بنت عم أمى، ضرب مايز جمل محمد بطلقة نارية وقتله انتقامًا منه لأكل برسيمه، ثم ضرب محمدٌ مايزًا دفاعًا عن جمله، وقتله، وقبل أن يمر العام كانت فتنية قد شجعت أخاها أبو ضيف، زوج خالتى نعمة السابق، وحمَّسته بكل الطرق على الثأر من محمدٍ، وبالفعل قتل أبو ضيف محمدًا، وأخذ ثأره، لكن بقيت الكراهية بينهم، وبخاصة أن محمدًا أخو جملات -امرأة عمى- مات قبل أن يتزوج، وأن ينجب، وانقطعت سيرته من الدنيا، بينما مايز ترك ولدًا سيحمل اسمه، وهذا يحرق دم جملات وإخوتها وأخواتها..

بالابتسامة تتغلب على فتور المقابلة، وبالكلمة الحلوة تُبْقِي الود، وبالإصرار على المحبة تتغلب على الكراهية، هذا ما قالته لى عطيات

ونحن ذاهبان إلى المدرسة، وقالت لى أيضًا إنها متأكدةٌ أن أمى تكرهها "كره العمى"، لكنها مصرةٌ على أن تحبنى، وقالت أيضًا لى إننا عندما نكبر سوف نتزوج، ونعيش العمر معًا، وطلبت منى ألا أختار غيرها، وأن أصرَّ عليها عندما ترفض أمى أن أتزوج بها، وطلبت منى أن أقسم بالمصحف وبالشيخ "سلمان أبو على" على ذلك، وطبعًا أقسمت لها..

نصف ساعة من المشى الجاد حتى وصلنا المدرسة، وما إن دخلنا حتى التف حولى كلُّ الراغبين فى الغش، أولادًا وبنات، بعضهم أعطانى حلوى، وبعضهم أعطانى فولاً سودانيًّا، وبعضهم أعطانى الشلن الذى أخذه مصروفًا، وظلوا يتوددون لى، حتى زملائى الذين كانوا يضربوننى توددوا لى، ورجونى بحرارة أن أغششهم، وفجأة خرج رئيس اللجنة من الداخل، وأمسك بحبل يتدلى من جرس نحاسى معلق بالنخلة فى وسط فناء المدرسة، هزَّ الحبل يمينًا ويسارًا بقوةٍ، أصدر الجرس رنينًا قويًّا متواصلاً جعلنا نهرول إلى داخل الفصول، وبسرعة جلسنا، ودقائق، ودخل مدرسٌ طويلٌ وعريضٌ وأسمر، وجهه عابسٌ، والغضبُ يتربع على كل ملامحه، ومعه أوراق الامتحان التى بدأ توزيعها علينا فوراً، نظرت حولى ووجدت الجميع هادئًا صامتًا، دققَّت النظر فى وجه عطيات فوجدتها تبتسم، وتغمز لى بطرف عينها، عرفت أنها الوحيدة التى لم تخف من هذا المراقب الضخم القاسى، وأنها تنوى أن تروضَّه، وما هى إلا لحظات حتى ابتسمت فى وجهه، ومدت ثدييها الجميلين للأمام، وظهرت

المساحة بين رقبتها وبداية ثدييها واسعةً ومشعةً ولامعةً ومثيرةً، وظهر ثدياها أكبر من المعتاد، ثم نادته في رقةٍ شديدةٍ وأنوثةٍ مدمرةٍ، فأسرع إليها الملاحظ بجسد فيلٍ وقلب عصفورٍ، طلبت منه شيئًا، وظهرت حبات العرق غزيرةً على وجهه، مسح حبات العرق بكم قميصه القديم، استرد أنفاسه، ربت على ظهرها بحنان جعلني أشعر بالغيرة والمهانة، ثم نظرإليَّ، و قال في استفهام:

- خلصت؟
- لسه.
- أول ما تخلص قول لي.
- حاضر.

دقائق مرت، وكنت قد انتهيت من الامتحان، وأخبرت الملاحظ بذلك، أخذ ورقة إجابتي، وأعطاها لعطيات، لكن عطيات أخبرته بأنها لا تجيد الكتابة ولا القراءة، وطلبت منه أن يعيد الورقتين إليَّ، وأن أقوم أنا بنقل إجابتي في ورقة إجابتها، وبالفعل جاء الملاحظ، وأعطاني الورقتين، ونقلت ما في ورقتي في ورقة عطيات، أراد البعض أن أفعل معهم مثلما فعلت مع عطيات لكن الملاحظ غضب، وصاح صيحة أسكتت الجميع وأخرستهم، وظللنا هكذا حتى جمع الملاحظ الأوراق، وخرجنا سعداء، ونحن نهتف، ونغني، و نمزق كتبنا قائلين:

- لا مذاكرة بعد اليوم.

عند بيت عمي رضوان ودَّعت حبيبتي، ثم عدت إلى البيت، لم

أجد أمى، ولم أجد أبى، سألت صفاء أختى أو السعفاء سابقًا، وأخبرتنى بأن أبى يجلس على النورج الخشبى الذى تجره بقرتنا الحمراء الوحيدة وهو "يجرس" القمح وسط الجرن، وقالت لى إن أمى فى بيت جدنا يونس، سألتها لماذا؟ وأخبرتنى بأنها ذهبت لتحضر زواج أختها نعمة من الشيخ صديق، وعلى الرغم من قسوة أمى علىَّ، فإننى شعرت بالاحتياج إليها، وكادت عيونى تدمع، واختنق صوتى، لاحظت صفاء ذلك، وقالت لى:

- لوعايز أمك روح لها بيت جدك.

بنفس مريلتى المتسخة، وحذائى البلاستيكى المهترئ، وجوربى العفن الممزق، خرجت من البيت قاصداً بيت جدى، وأنا أعلم أن المشوار يستغرق نصف ساعةٍ، وأنَّ أمى ستضربنى عندما ترانى بهذا الشكل، لكننى صمَّمت على الذهاب، فالبيت بدون أمى مغارة فى قلب الجبل لا أحتمل البقاء فيها ولو ثوان..

(١٥)

(عندما يعود فهيم العقيلى وابنه من الحج، ويؤكد الابن أن ما حدث مع أبيه الموسم الماضى عندما همَّ برمى الشيطان بالجمرات فظهر الشيطان وهو يتوسل إليه ويقول:

حرام عليك يا فهيم؛ كده برضه
تقتلنى يا فهيم! كده برضه تقتل
أخوك يا راجل؟

ما حدث مع الأب هو نفس ما حدث مع الابن هذا الموسم، عندما يقول فهيم ذلك عليك أن تدرك أن ما حدث معهما سيحدث مع الأولاد الثمانية الباقين، لكن حذار أن تغمز، أو تلمز، أو تبتسم، أو تلمِّح بذلك، فقط ضع استنتاجك فى بطنك، واصمت تنج، وإلا..)

(١٦)

غابت الشمس، وحلّ الظلام، وجاء رجال وشباب وشيوخ عائلة جدى يونس، جلسوا على الدكك الخشبية، قدم لهم جدى وأخوالى الدخان القص والمعسل والسجائر وأكواب الشاى الثقيلة، كنت مشغولاً بعدّ وإحصاء السجائر الكثيرة بجوار الضيوف، يكاد يكون الكل متساويًا، حاولت أن أعرف من الذى أخذ أكبر كمية سجائر من الضيوف، لكن تعبت، ولم أتوصل لنتيجة، فالكل متساوٍ تقريبًا، وفجأةً وأنا أتجوّل وسط الضيوف ممسكًا بعلبة سجائر أعطتها لى أمى عوضًا عن غياب أبى المضطر للبقاء فى الحقل، ظهر نورُ كشافاتِ سيارةٍ قادمًا من بعيدٍ، نظرت يسارًا، ووجدت سيارة "على عبود"، أول سيارة دخلت القرية اشتراها العمدة، واختار عبود ليسوقها، قُتِلَ العمدة، تشاءم أولاد العمدة منها، باعوها لعبود

برخص التراب، ولكى يخلّص عبود السيارة من تشاؤم الناس خصصها لنقل العرسان فقط، هى تشبه الخنفساء، وتحوى داخلها كرسيين قديمين، واحداً للسائق ومن يجاوره، والآخر للعريس والعروسة، وبمجرد أن ترى هذه السيارة ستتذكَّر بنات القرية وهن يغنين:

(تاكسى عبود / يا ماحطش رجلى
هات لى التاكسى / واملك قلبى)

خلف سيارة على عبود جاءت سيارة ربع نقل، وقفت السيارتان أمام بوابة جدى الخشبية الكبيرة، لم يعجبنى أن أؤدى دور الرجال، فكلما تقدمت لتحية رجلٍ وأعطيته سيجارةً، نظر إلىَّ ساخراً مستهزئًا، وهو يتفحصنى من أسفل إلى أعلى، لذلك خبأت علبة السجائر فى جيب جلبابى، وقفزت أنا مع الصغار الذين سبقونى، وقفزوا داخل السيارة الربع نقل المخصصة لكل شىء، نقل مواش، نقل غلال، نقل أسمدة، نقل أسباخ، نقل بشر، وبالرغم من ذلك، فنحن مهووسون بركوب هذه السيارات، ومشاهدة طائرات الرش التى تأتى فى منتصف الصيف، وتقترب من الأرض والبيوت والقطن والترعة والنهر، وتفرغ ما فى بطنها من مبيدات، نحن بمجرد أن نسمع صوت الطائرة، نهرول حفاةً عراةً إلى الخارج لنستمتع برؤيتها، ثم بصيد السمك الذى يترنح فى المصارف والترع والنهر وصيد العصافير التى تترنح فى الحقول، وذلك بسبب المبيدات التى تفرغها الطائرة من بطنها، هم يقولون إن المبيدات لقتل دودة

القطن، لكن الحقيقة كنا نرى دودة القطن تنتشر أكثر بعد الرش، ولا تموت، فقط تموت الأسماك والعصافير والدجاج والبط والأوز والماعز والغنم والأبقار والجاموس، وأحيانًا يصاب أحد الأطفال أو الرجال بتشنج عصبى من الممكن أن يتزايد ويصل لحد الموت، بالفعل أصيب شباب كثيرون، تصلبت أجسادهم، وسكبوا من أفواههم أشياء بيضاء كثيرة، وعلى الرغم من جرعات الملح التى شربوها، فإنهم فارقوا الحياة، ولكن نحن نحب السيارات المكشوفة، ونحب طائرات الرش، لهذا قفزنا داخل صندوق السيارة ربع النقل، وظللنا نتقافز فرحين داخلها حتى جاء خالى، ومسكنى من تحت إبطى، وأنزلنى قائلا:

– روح قول لهم يجهزوا.

دخلت بيت جدى، البيت ممتلئ بالبنات والنسوة، وجدت أختى صفاء السعفاء سابقًا وسط النسوة، وهى ترقص بمهارة، وتغنى بغنج وتقول والبنات يرددن خلفها:

– أول ما دخل.

– هيه.

– دخل عليها.

– هيه.

– فرجح رجليها.

– هيه.

– واتكل على الله.

لا أعرف متى أو كيف جاءت أختى صفاء إلى بيت جدى، ولم أشغل بالى بذلك على الإطلاق، ودخلت حجرة جدتى، وقفلت الباب خلفى، ونظرت، فوجدت خالتى نعمة عاريةً تمامًا فى الطشت، جسدها متناسقٌ جدًّا، بطنها مثل عجينة القمح، ليس بها ترهلات مثل أمى، كأنها بطن بنتٍ لم يمسسها إنسٌ ولا جان، ثدياها منتصبان وشهيان، ويداها تغطى ما بين فخذيها من جحيمٍ، وقدماها غارقتان فى الماء وفقاعات الصابون، وجسمها شديد البياض على عكس أمى، شعرها يتدلى لأسفل مؤخرتها وهو مبلولٌ، هو الآن أكثر طولاً وجمالاً وإثارةً، قدَّمت لها جدتى روميةً بيضاء لّماعةً وقميص نومٍ أحمر، لبستهما، ومسكت الفلاية، غرست الفلاية فى شعرها فانسابت بسهولة حتى وصلت نهاية شعرها، إنها الآن أكثر إثارة، وأنا أموت وأراها وهى تلعب لعبة العروسة، نعم أود أن أراها لأطبّق ما أراه مع عطيات بنت عمى عندما تطلب منِّى أن نلعب لعبة العريس والعروسة، سرحت بخيالى، وعدت واستغربت، فأمى عندما تضع الفلاية فى شعرها تتعارك مع الفلاية، والفلاية تعاندها وتتوقف فى شعرها أكثر من مرَّةٍ، تدعك أمى شعرها بالكيروسين، لكن حركة سير الفلاية فى شعرها تتوقف أكثر من مرة فى الرحلة الواحدة، وخالتى لم تضع كيروسين مثل أمى، وعلى الرغم من ذلك تنساب الفلاية فى شعرها كسريان السكين فى السمن..

انشغالى بخالتى لم يمنعنى من رؤية أمى وهى تصنع عروسةً من الحناء وتضعها بجانبها بجوار باذنجانة سوداء وحجاب داخل قماشةٍ

بيضاء أعتقد أنها من نفس قماشة الرومية التى تلبسها خالتى، سألت أمى عن هذه الأشياء، فقالت بنبرةٍ صارمةٍ:

- مالكش صالح.

سمعنا صوت جدى، لحظة، وفتحت الباب، ووجدنا جدى يونس يقف أمام حجرة جدتى ومعه الشيخ صديق بجلباب جديد أنيق وشال وعباءة بُنِّية، سلم الشيخ صديق على جدتى وخالتى وأمى، ولم يسلم على، وقال لجدتى:

- خلاص يا حاجة؟

غطت جدتى شعر خالتى بإيشارب جديد، وقبلتها فى حنان، ونظرت لأمى قائلة:

- قومى روحى مع أختك.

حمل الشيخ صديق خالتى بين يديه، وخرج من حجرة جدتى، وأنا وأمى وجدى خلفه، زغردت النسوة، ورقصت صفاء بحرارة وهى تغمز بعينيها للعروسين حتى وصلنا للبوابة، وجدنا السقاء يعترض طريق الشيخ صديق، أنزل الشيخ صديق خالتى برفق، وأخرج محفظته الجلدية الممتلئة بالنقود الورقية، أعطاه بعض المال، رقص السقاء سعيداً وهو يمسك بالنقود التى نالها، انطلقت الأعيرة النارية فى الفضاء، حمل الشيخ صديق خالتى مرة أخرى بين يديه، سار بها إلى السيارة المغطاة، فتح السائق الباب، وضع الشيخ عروسه برفق وحنان داخل السيارة، وركب بجوارها، وركبت أمى بجوار السائق، وعندما رأت أمى رغبتى فى أن أذهب معها، رفعتنى

من الأرض، ووضعتنى على حجرها، وهى تحذرنى من الاحتكاك بعروسة الحناء، والباذنجانة والحجاب..

رائعٌ أن تركب سيارة، والأكثر روعة أن تركبها بعد المغرب، وفى شهر مايو تحديداً، حيث لا برد شديد يلسع الأجساد، ولا شمس حارقة تشوى الوجوة، والأكثر روعة أن تنطلق بك من بيت جدى يونس فى وسط بيوت قرية العتمانية التى يحاصرها الجبل شرقًا والنيل غربًا، ثم تخترق بيوت القرية شمالاً، تمر وسط بيوت النص البحرى الذى لا أعرف عنها شيئًا، وتصل لجامع الشيخ سالمان أبو على، وتلف حول المقام الطينى العريق سبع لفاتٍ، ثم نقرأ الفاتحة، ثم تنطلق فى الفضاء شمالاً، حيث الهواء الرطب والنسيم العليل، حتى تصل لدير الأنبا هارمينا السايح، وتندهش كيف كان يعيش هذا القديس معزولاً عن الدنيا فى هذا المكان النائى النائم فى حضن الجبل سنواتٍ طويلةً، وكيف بنى بمفرده هذا الدير الرائع الواسع، وكيف لم تجرفه السيول الكثيرة التى اجتاحت بلدنا، وهدمت بيوتنا الكبيرة والصغيرة، العريقة والحديثة، كيف لم تجرف السيول هذا الدير المبنى من الطوب اللبن، وقبل أن تفيق من نشوة إعجابك بالدير تجد السيارة تقترب من الجبل العالى، حيث المغارات التى تمتد لعشرات الكيلومترات داخل الجبل، والذى ليس لها آخر، والمطاريد الذين توحدوا مع الجبل، وصاروا كائنات جبلية، والمعبد الفرعونى القابع وحيداً أعلى الجبل لا كهنة ولا عبّاد، والمحكمة الفرعونية التى صارت مأوى للصوص وناهبى الآثار، والبيوت المبنية

بالتوابيت الفرعونية من كل العصور، ثم تقترب السيارة من الترعة، والنخيل العالى على شاطئيها، وقبل أن تصل إليها تتوقف السيارة عند بيت الشيخ صديق الجديد المبنى بالطوب الأحمر تحت الجبل على أطراف عزبة يوسف..

تتوقف السيارة، وقبل أن ننزل تأتى امرأة مهلهلة الثياب، متسخة وقذرة، حافية القدمين، ذكورية الملامح، ومعها شابان وبنتٌ كبيرةٌ ليس بينهم وبين الجمال أى عمارٍ، المرأة تزغرد والأولاد يشهرون بنادقهم، ويطلقون أعيرتهم النارية فى الفضاء، ينزل الشيخ صديق من السيارة الخنفساء، تهمس أمى لخالتى قائلة:

- دى نعوس مرته؛ اوعى تسلمى عليها.

- ليه بس؟

- لا احسن تربطك يا عبيطة.

دخل الشيخ صديق حاملاً خالتى بين يديه، ودخلت أمى وأنا ممسكٌ بذيل ثوبها المنقوش بالورد، ودخلت نعوس خلفنا، كان البيت مكنوسًا ونظيفًا ومرتبًا ومنظمًا، والعشاء جاهزًا على الطبلية، قالت نعوس للشيخ صديق:

- تعوز حاجة تانى؟

- خدى عيالك وروّحى.

تخطو نعوس للخارج، وأنا أتشمم رائحة العشاء الشهى وأمنّى نفسى بأن أنال جزءًا منه، تغلق نعوس البوابة الخشبية وراءها، تدخل أمى وخالتى حجرة النوم، تجلس أمى على حافة سريرٍ نحاسى

بناموسيةٍ، وتضع أمى الحجاب فى جيب رومية خالتى، وتضع الباذنجانة السوداء وعروسة الحناء فى صندوق القماش الحديدي وتحذِّرها من نعوس زوجة الشيخ صديق الأولى، وتنصحها أن تحسن معاملة أولاد وبنات الشيخ صديق، وقبل أن تنتهى أمى من نصحها لخالتى يدخل الشيخ صديق ويقول لأمى:

- ياللا عشان السواق مستعجل.

تلف أمي الطرحة السوداء على رأسها، وتسحبنى من يدى، وتخطو للخارج، وأنا أتحسر على ضياع أحلامى وأمنياتى هذه الليلة، فلا جزءاً من العشاء الشهى أكلت، ولا لعبة العريس والعروسة التى سيلعبها الشيخ صديق وخالتى نعمة، والتى أنوى أن أطبقها مع حبيبتى عطيات شاهدت، لهذا خرجت خلف أمى أجرجر خطواتى، خرجت حزينًا مكتئبًا على ضياع هاتين الفرصتين الثمينتين..

(١٧)

(فى بـدايات الـشـتـاء إن لمحت وسط الـظـلام رجلاً مـلـثـمـاً يـوزّع القـمح والبطـاطين عـلى بيـوت الـفـقـراء، فاعـلم أنه فـهـيم الـعـقـيلى، واحذر أن تسأله لأنه قطعًا سيقول لك إنه ليس هو، ففى بلادنا عمل المعروف ضعفٌ، وهو قلبه طيبٌ، لـكنه لا يحب أن يظـهر أمام الناس ضعيفًا!)

(١٨)

أجمل البنات هى البنت التى تنبهر بها، ولا تلمسها، وأجمل الأكلات هى الأكلة التى تشتهيها، ويسيل لعابك عليها، ولا تأكلها، وأجمل الكلمات هى الكلمة التى يقولها عمى محمود بعد أن يستحلب الأفيون، ويتكئ على جذع النخلة التى هى أمام بيته الطينى، وأتمنى أن تكون معى ورقة وقلم لكى أكتبها، ولا أجد ورقةً، ولا قلمًا، ولا أكتب شيئًا، ولا حتى أحفظ شيئًا، وأجمل المهن هى المهنة التى تعجب بها، ولا تقدر أن تزاولها، كنت أقول لنفسى ذلك، وأنا أتفرج على أبى بعضلاته المفتولة، وذراعيه القويين، والعرق يشرّ من فانيلته القطنية البيضاء ذات الأكمام الطويلة، وهو يعزق الأرض بفأسه الحادة المسنونة أو وهو يعدّ الأرض للزراعة، أو وهو يحصد القمح بشرشرته اللامعة المقوسة، أو وهو

يقتلع حطب القطن العفى، كثيراً ما حاولت أن أجرِّب نفسى على هذه الأعمال التى يقوم بها أبى بسهولة، وكثيراً ما فشلت، وكثيراً ما سحب أبى من يدى الفأس أو الشرشرة، وربت على كتفى بحنان، ونصحنى بأن أعود للبيت والمذاكرة، هو يريدنى أن أتعلم، وأنا أريد أن أكون مثله مزارعًا قويًّا يعتبر أرضه كونه وعالمه، تعشقه أرضه، ويعشق أرضه، أعزق مثله، وأضرب الأرض بالفأس بقوة مثله، وأعمل لساعاتٍ طوالٍ مثله، أداعب نباتاتى برفقٍ، وأرعاها كأطفالى، أربت عليها فتجزل عطاءها لى، وأجعل جلبابى لها مظلة فى الصيف، وفى الشتاء أجعل قلبى لها دفئًا، لكن كلما حاولت أن أجرِّب ذلك كنت أفشل، فعودى نحيلٌ، وذراعاى ضامرتان، وجلدى مكرمشٌ، وقواى خائرةٌ، وحرقان البول يصر على أن يلازمنى، كل ذلك كان يكتب الفشل على محاولاتى، قلت: الدراسة انتهت، والنتيجة أوشكت على الظهور، والصيف نهاره طويلٌ ومملٌ، وأنا لا أجد فى قريتى كتابًا أقرأه، ولا تليفزيونًا أشاهده، ولا راديو أسمعه، فلماذا لا أتجسس على البنات كما أمرتنى أمى، لماذا لا أراقب أختى صفاء، السعفاء سابقًا، وأختى أمل، وأختى عالية، وصديقتهن خفيفة الدم الجريئة التى لا تستحى من أحدٍ حسنية بنت عبد النعيم؟

جلست تحت السنطة فى عز القيالة، ماء الترعة صاف، الأسماك تعوم قرب الشاطئ، العصافير ساكنةٌ ساكتةٌ فى أعشاشها، الكلاب ملقاةٌ، وهى تلهث بجوار الشاطئ اللين الطرى، نظرت ولم أر أحدًا،

الشمس حارقةٌ، والناس فى البيوت مسترخيةٌ، أونائمةٌ تحت ظلال الأشجار، أعرف أنه لا يخرج فى هذا الوقت إلا لصوص الحشائش، أو طالبو الثأر، أو العشاق، المهم مسكت السنارة، وتظاهرت بالصيد، وفجأة جاءت من بعيدٍ من ناحية النواورة جمالٌ كثيرة تحمل قمحًا كثيراً على ظهورها، صف الجمال يمتد لمساحة نصف كيلو متر أو يزيد، تقدمت الجمال، ظهر فى أولها بسطروس راكباً حماره، فعرفت أنها جمال بيت الشيخ لطفى الذى يسكن النص البحرى من القرية، والذى يملك أكبر مساحةٍ من الأرض فى زمام قاو كلها، والذى يجرّن القمح فى جرن أمام بيته هو أكبر الجرون فى قريتنا، الفلاحون يصعدون الجرن بالسلالم الخشبية الكبيرة، والنوارج تظل تجرس القمح شهوراً، حكت لى أمى ذات ليلة عن أن الشيخ لطفى أمه حلبيةٌ، جاءت ذات يومٍ تتسول مع من يجيء من أفواج الحلب، رآها، وأعجب بها، وتزوجها فى نفس اليوم التى رآها فيه بالرغم من قلة أصلها، وأنجب منها الشيخ لطفى الذى أنجب بدوره معتمداً الذى تخصص بدوره فى لعب الميسر والجرى وراء البنات لدرجة أن شهرته تجاوزت النص البحرى، ووصلت إلينا فى النص القبلى، ومن المرجَّح أن تصل النواورة جنوبًا، والهمامية شمالاً، ونجوع المعادى غربًا، المهم تقدمت الجمال، وفجأة ظهرت حسنية بنت عبد النعيم من وسط الحقول لا أدرى كيف ظهرت، يبدو أنها كانت تنتظره، هى قصيرةٌ وممتلئةٌ، مشت فى أنوثة، وعندما وصل آخر صف الجمال بمحاذاتها، اقتربت من معتمد لطفى

الذى يسير خلف الجمال راكبًا فرسه، وفى أنوثة نظرت له، شد لجام فرسه، وقف الفرس، نزل معتمد، سلمت عليه بحنان، وتركت يدها فى يده، ابتسم معتمد، اقتربت أكثر، مسك يدها الأخرى، تركتها له، قالت إنها تريد "كتاية" قمحٍ، نظر معتمد ناحية طابور الجمال، ووجد الجمال قد ابتعدت عنه، سحبها من يدها تاركًا فرسه يرعى، طاوعته، وظلا يهرولان حتى وصلا لآخر جملٍ، أوقف معتمد الجمل، ومسك الحبل الغليظ المتين الذى يحزم القمح، وبقوة جذبه، انفرطت حمولة الجمل على الأرض، انشغلت حسنية برص القمح كومةً واحدةً، وانشغل معتمد بلف الحبل حول شاغر الجمل، وعندما انتهى من ذلك ضرب مؤخرة الجمل بيده، برطع الجمل وأسرع الخطى ليلحق بطابور الجمال التى سبقته، دعك معتمد يده بالأخرى، وأمسك حسنية من وسطها، وحملها بين يديه، وقربها من صدره، ولفَّ ذراعيه حولها، صارا جسداً واحـداً، وسار خطوات ناحية الحلفا العالية التى تنتشر بمحاذاة الترعة، ومشى، وفى وسط الحلفا العالية نزل بها، لم أعد أراهما، الحلفا فقط تهتز وتتمايل، والسنارة التى بيدى جذبها السمك فجأة، ولولا أننى كنت أغرز قدمى الحافيتين النحيلتين فى طين الشاطئ جيداً لجذبتنى السمكة، وأسقطتنى بجلبابى وسروالى فى الترعة، ازدادت ضربات قلبى، ومشيت على أطراف أصابع قدمى الحافيتين الضامرتين بدون أن أصدر أى صوتٍ حتى وصلت بالقرب منهما، وهناك وجدت معتمداً يتكوُّم فوق حسنية، ويدعك فمه فى فمها ويدعك نهديها بيديه،

وهى تتلوى تحته وترجوه أن يتركها، وقد تشرَّب وجهها بالحمرة، وانكشف لحم ساقيها الأبيض البض، تسمَّرت فى مكانى، وتوقف تفكيرى، ولم أعد أدرى ماذا أفعل، نظرت إلى حسنية، حسنية رأتنى، انتفضت حسنية، أزاحت حسنية معتمداً لأعلى، وقفت حسنية، نفضت التراب عن جلبابها الأبيض ذى النقوش الحمراء، وقف معتمدٌ، اقترب منى محاولاً الإمساك بى، حالت حسنية دون ذلك، وفى تهديدٍ لى قالت بعد أن غمزت له:

- لو قلت لحد ع اللى شفته ده هاقول السعفاء أختك كانت معاى.

أعجبت الفكرة معتمداً، ووقفت مرتبكًا وخائفًا، ثم نظر حوله وعندما لم يجد أحداً مشى مسرعًا ناحية فرسه، مسك لجامها، وقفز على ظهرها بمهارة وانطلق، ربتت حسنية على كتفى، وأخذتنى لأساعدها فى نقل القمح الذى أعطاه لها معتمد إلى عشتها، ثم غسلت لى وجهى، وغسلت وجهها، وأخذتنى إلى دكان عزيزة الطهطاوية، واشترت لى حلوى حمصية وسمسمية وقمع خلعة مصنوع من العسل الأسود، ورجتنى ألا أخبر أحداً بما رأيت، وبعد أن استحلبت قمع الخلعة، وأعجبنى طعمه، وعدتها بذلك، وعدنا معًا إلى البيت، هى لتقابل أختى السعفاء، وأنا لترانى أمى، وتطمئن على، وعندما دخلنا البيت، وجدت أبى وعمى محمود وعمى رضوان ومنازع وأمه وسليم ابن عمى والمأذون، فأدركت أن شيئًا ما يحدث، وبسرعة نظرت ناحية حوش البيت فوجدت أختى صفاء -السعفاء سابقًا- تبكى، وتهدِّد بعلو صوتها

وكل غضبها بأنها ستحرق نفسها، تعاطفت مع صفاء، وقلت لا بد من أن أصنع شيئًا من أجلها، وجاء على بالى أن أقول إنها صغيرةٌ، ولم تبلغ سن الزواج، وهذا مخالفٌ للقانون كما علَّمونا فى المدرسة، أعجبتنى الفكرة، وبسرعة وقفت، وكما يتحدث عمى محمود بعد استحلابه للأفيون قلت للمأذون إنها صغيرةٌ، ولا تصلح للزواج، نظر الجميع إلىَّ نظرةَ غضبٍ، كانت أكثر النظرات إيلامًا لى نظرة عمى محمود، بينما قال المأذون وهو يبل قلم الكوبية بلعاب فمه:

- مش مهم؛ أنا هاعقد عليها عقد.

ثارت صفاء، وجن جنونها، لكن أبى ومن معه لم يكترثوا بجنونها وثورتها، واستمروا فى كتابة عقد زواج السعفاء التى لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها! حاولت حسنية أن تقنع السعفاء صديقتها بالزواج، لكن يبدو أن السعفاء مصممةٌ على الرفض..

(١٩)

(لـو كـنت فى الـسـوق، أو فى المـقـهى، أو عـنـد الجزار، أو عـنـد البـقال، وسـمـعت صوت انـفـجار بمبـة، فاحـذر، واختـبئ، لأنه مـجرد انفجـار البمبـة سيجعل الجـميع يسـحبون بـنادقـهم، ويقتلون بعضـهم الـبعض، وسـيغلق ضـابط الشـرطة ورجاله نـقطـة الشرطـة، وسيـختبئ العمدة فى حجرة الفـرن، وسيوصد المأمور باب مركز الشرطة جيداً، ولا يـخرج أحـدٌ من هـؤلاء إلا عـنـدمـا يمـوت من يموت، ويـصـاب من يـصاب، ويـتعب من يتعب، سـيخـرج فـقط لـيجمـع الجثث، ويـكـتب مـحضـره، لـهذا فـور انـفـجار الـبـمـبة يـجب أن تـختـبئ فى أقـرب مـكـان يقابلك)

(٢٠)

كنت أندهش عندما يخبرنى أبى بأنه منذ ولد لم يخرج مرة واحدة من بلدنا قاو التى تقع جنوب شرق أسيوط بخمسين كيلومتراً، رفض كل السفريات التى جلبها له أصدقاؤه وأقاربه، سواء إلى العراق، أو الكويت، أو ليبيا، أو السعودية، حتى عن دخوله الجيش أخبرنى أكثر من مرة بأنه لم يدخل، وقال لى موضحًا إنه عندما كبر، وصار شابًّا مطلوبًا للتجنيد، أخذ كبير عائلتنا الشيخ إبراهيم سالم منه البدلية، "مبلغ من المال يدفعه من لا يرغب فى دخول الجيش"، ودفعه للدولة، وبذلك لم يلتحق أبى بالجيش، ولم يسافر، ولم يخرج من قاو بالرغم من أنه شارف على الأربعين من عمره، لهذا فإنَّ أبى لا يعرف من الدنيا إلا قاو قريتنا، ومدينة طما التى لا أعرف أين هى؟ يقول أبى إنه يمشى غربًا حتى

يصل النهر، وهناك يركب مركب الحاج شاهين المصنوعة من خشب سنطة كانت ملك جدى أبو زيد وقطعها عندما أراد الحاج شاهين أن يصنع مركبًا، ويعبر النهر، وعندما يصل الشاطئ الآخر يكون قد وصل لبدايات طما، أبى يحب أهل طما، ويصفهم بالطيبة والجدعنة، ويحب أن يبيع ويشترى منهم ومعهم، لهذا عندما جاء منازع وأبوه وعمى رضوان وعمى محمود إلى أبى وأخبروه بأن منازعًا جاهزٌ بالمال اللازم لشراء الذهب وحاجات العروسة، وأنه يريد من أبى أن يذهب معه إلى البدارى مدينتنا ومركزنا، والتى لا تحتاج لا لركوب مركبٍ، ولا لعبور نهرٍ، رفض أبى، وقال إنَّه لن يذهب إلى البدارى، وسيذهب لمدينة طما، وافق الجميع، ووضع أبى شاله على كتفه، ومشينا غربًا ناحية النهر حتى وصلنا شاطئ النهر، بهرنى منظر النهر، فالنيل عندنا صاف ورائعٌ وشاسعٌ، السفن تمر فيه محملة بالسياح والأحجار، ومراكب الصيد الصغيرة تتجول فى مياهه بحريةٍ وانطلاق، ركبنا المركب الذى كان ينتظرنا، رأيت فى المركب جمالاً وأبقارًا وماعز وغنمًا وحميرًا وأطفالاً ونساءً ورجالاً وغلالاً، سحب المراكبى الهلب، وفرد شراعه، تحرَّكت المركب بنا، وبعد دقائق قليلةٍ مال أبى ناحية ماء النهر وملأ كفيه بالماء الرائق وشرب، هممت أن أفعل مثله فجذبنى عمى محمود من قفاى للخلف، ابتسم أبى، واغترف لى غرفةً من الماء وسقانى، أعجبنى طعم الماء جدًّا، واندهشت وقلت لنفسى:

كيف يمر كل هذا الماء العذب الشهى بجوارنا ويسقوننا ماءً مالحًا، طعمه لا يطاق، وأصاب نصف سكان القرية بالفشل الكلوى، والنصف الآخر بحرقان فى البول، ومغص فى الكليتين والمثانة والحوالب؟

وصلت المركب للشاطئ الآخر بعد دقائق أقل ما توصف بها أنها مبهرة، وقفت المركب، ونزلنا، ثم صعدنا لأعلى قليلا ثم مشينا عبر ممرٍ ترابيٍ ضيقٍ فى آخره وجدنا سيارة ربع نقل، وبسرعة ركبنا، تعمَّد السائق أن يحشر الركاب والحيوانات فوق بعضهم بعضًا حتى امتلات السيارة عن آخرها، وانطلق وسط حقول تشبه حقولنا، عشر دقائق ودخل وسط بيوتٍ عاليةٍ منظمةٍ ومزدحمةٍ وقديمةٍ، وبدأت أشم روائح الطعمية والعطور والشطة والكمون، وأسمع طقطقات القطارات لأول مرةٍ فى حياتى، وقفت السيارة، ونزلنا، ودخل أبى دكانًا لبيع الذهب، وبعد تدقيقٍ وانتقاءٍ اختار كردانًا ذهبيًّا وحجلاً من الفضة دفع منازع ثمنهما وأخذهما أبى ثم خرجنا، ومشينا قليلاً، ثم دخلنا دكانًا ممتلئًا بأقمشةٍ للرجال والنساء، اختار أبى ملابس كرومية خالتى نعمة، وقطعتي قماشٍ له ولعمى محمود ليحوِّلهما إلى جلابيتين وصديريين لهما، ومترين مخططين لى، ثم خرجنا، وأكلنا طعميةً ساخنةً، ثم شربنا بوظة، ثم اشترى أبى حلوى وطعمية وأصرهم فى منديلٍ قماشى لأمى وإخوتى، أعطانى المنديل، وعدنا سعداء، رغم حرارة الجو الشديدة، والأرض التى ترسل جحيمًا لا يرحم أرجلنا، المهم عدنا، وعندما وصلنا لمشارف قريتنا سمعت صوت خليفة عاليًا، وهو يستغيث قائلاً:

- الحقووووووونى، الحقنى يا محمود.

انتبهت، ونظرت نحوه، وجدته قادمًا من بعيد، وهو غارقٌ فى الدماء، و يجر ساقه الأيسر بصعوبة، وخلفه على بعد خطوات يجرى عبد الرسول وعواض ورجلان آخران، وهم يصوبون بنادقهم نحوه، ويطلقون أعيرتهم فى جسده، وقبل أن يقترب منَّا أو نقترب منه سقط خليفة على الأرض، قال عمى محمود وهو يهرول نحوه:

- ارفع إيدك يا عبد الرسول.

لم يهتم عبد الرسول بكلام عمى محمود، وأفرغ ما فى خزينة بندقيته فى صدر خليفة بغلٍّ شديدٍ وهو يقول:

- خد يا واد القحبة.

وأسرع عواض الصغير ابن العاشرة، وسحب من وسطه ساطوراً مسنونًا شديد اللمعان، وضرب ذراع خليفة فانفصل الذراع عن الجسد وتدفقت الدماء لتصنع بركة دمٍ فى وسطها يتكوم خليفة وهو يشخر شخرات تهز الكون، ثم رفع عواض ساطوره، وبقوة أنزله لأسفل، وقبل أن يفصل عواض رأس خليفة عن جسده، كان عمى محمود قد وصله وأمسك يده، وحال دون فصل رأس خليفة عن جسده، وهو يقول لكبيرهم:

- كفاية يا عبد الرسول.

- دا كفّرنا.

مات خليفة فى مفترق أربع طرق، وأخذ عواض ذراعه الأيمن، وضع الذراع فوق يديه، وبندقيته مدلاة على كتفه، ومشى فى اتجاه

بيتهم، حيث أمه تقف فى قلقٍ شديدٍ فى بدايات بيوتهم، وهى تنتظر قدومه حاملاً الذراع التى قتلت زوجها، وكستهم لسنوات ثوب الذل والعار، مشى عواض وسط بيوت القرية، وهو يصيح كالمجنون حاملاً ذراع قاتل أبيه، وخلفه أقاربه الثلاثة يشهرون بنادقهم لأعلى ويقول:

- خدت تار أبوى يا ناس.

- خدت تار أبوى يا أهل قاو.

عندما شاهدت كل ذلك سألت نفسى: هل بعد أن ثأر عواض لمقتل أبيه أبو سمكة، هل سيفرح السمك، وهل سيعود مرةً ثانيةً للترعة بعد أن هجرها حزنًا على الرجل المسكين الطيب أبو سمكة، هل سيعود السمك مرة ثانية؟ وهل سأصطاد سمكًا كثيراً كما كنت أفعل؟ بعد فترةٍ من الزمن نظرت لأسفل ووجدت حذائى البلاستيكى الأبيض قد صار أحمر، أدركت أننى مشيت على دم خليفة بدون أن أشعر، وبسرعة خلعت خذائى، وبسرعة ظللت أضربه فى الأرض والصخور والأحجار محاولاً تخليصه مما علق به، نظفت الحذاء لكن خوفى من أن العفاريت ستلاحقنى بسبب الدماء التى علقت بحذائى جعلنى أذهب إلى الترعة وأغسل الحذاء فى الماء جيداً، حتى صار الحذاء شديد البياض، شديد اللمعان، ورغم ذلك إحساسى بأن عفريت خليفة سيلاحقنى ظل موجوداً، ومسيطراً على كل تفكيرى..

(٢١)

(أحياناً يأتي ضابط شرطةٍ جديدٍ يريد أن يسجِّل مجداً جديداً له، أو يمحو عاراً نُقِلَ بسببه إلى هنا، فينظِّم حملةً لكي يجمع أسلحةً أو يقبض على واحدٍ من الذين يزرعون حقولهم أفيونًا، أو يحاول كسر أنف الرجل القصير فهيم العقيلي ومريديه مطاريد الجبل، لا تفرح، ولا تظهر شماتتك، فسرعان ما يركب فهيم فرسه، ويدخل بها حتى مكتب المأمور، ويشرب قهوته معه، ثم يضع المأمور بنفسه الأسلحة التى أخذها الضابط الأرعن على ظهر الفرسة أمام الرجل القصير، فلا تشمت، ولا تفرح، وأظهر طاعتك للرجل القصير، وإلا ستموت، وتأكل الغربان من رأسك، وتتناثر أشلاؤك فى الفراغ، وبين فم الطير والجوارح، ووقتها سينظر لك المأمور شزراً، ويتهمك بالغباء لأنك عرضت نفسك للقتل)

(٢٢)

زاد إحساسى بحرقان البول، وزادت حالات الإسهال، وزادت زياراتى للبورة، تلك المساحة الخالية بالقرب من بيوتنا، كل نصف ساعة أذهب إليها، وعلى الرغم من رعبى وخوفى من عفريت خليفة الذى لا يتركنى فى نهارٍ أو ليلٍ، فإننى كنت أتسلل إلى البورة، وبمجرد أن أرفع مؤخرة جلبابى يتدفق من مؤخرتى سائلٌ أصفر مخلوطٌ بقطع أشبه بالدهن، حكيت لأبى عنه فقال إنه دوسنتاريا بسبب تعرضى للشمس، واكتفى بأن أعطانى ليمونةً خضراء تشبه ليمونة القطن، وأمرنى بأن آكلها، أكلتها، وشعرت بالراحة عدة أيام، لكن بعدها عاودنى الألم، عرفت فيما بعد أنها ليمونة لزهرة خشخاش "أفيون"، وذات ليلةٍ شديدةِ الظلمة، وبعد أن أفرغت ما فى بطنى، لمحت سحابةً سوداء قادمةً من بعيد، خفت، ولكن ثوان

وسمعت صوت أمى وجاراتها بأثوابهن السوداء، وهن يحملن الماء الساخن فوق رؤوسهن، أخذت كل واحدة منهن مكانًا، كانوا مثل الهلال المطلى باللون الأسود، كتمت أنفاسى، والتزمت الصمت، وبصعوبة رأيتهن وهن يشمرن جلابيبهن، لاحظت أنهن لا يلبسن سراويل داخليةً، وفور أن قرفصن على الأرض بدأن يتبرزن، وبالماء المغلى ينظفن مؤخراتهن وأعضاءهن التناسلية، صوت ارتطام الماء الساخن بأعضائهن أنا أعرفه، اختلطت خشولة الماء بكلامهن، قالت واحدة منهن بصوت هامس:

- شفتى اللى حصل لحسنية؟
- حصل إيه؟
- طلعت بكرشها.
- يا ساتر يا رب!
- كِيف ده؟
- اتدهرب عليها معتمد واد الشيخ لطفى، وعمل اللى عمله.
- وبعدين؟

قالت أمى إنه لا بد أن يتزوجها، وعندما أبدت واحدةٌ منهن دهشتها من ذلك، وقالت كيف يتزوج ابن الشيخ لطفى واحدةً كهذه لا أصل ولا فصل لها! هنا ذكَّرتها أمى بالحلبية التى تزوجها أبوه، وقالت لها أيضًا إنه ما دام قبل أن يواقعها فى الحرام فعليه أن يتزوجها فى الحلال، ثم قالت واحدةٌ إنه لن يتزوجها لأن أباها سيقتلها، وهنا تعجبت أمى بشدة، وقالت فى مرارةٍ وتعجبٍ

واستفهامٍ، وهى تغسل مؤخرتها بالماء :

- الواحدة تبقى عارفة إنها هتتقتل وتعمل الحاجة دى !

عادت أمى إلى البيت، ومتلصصًا عدت خلفها، وبمجرد أن دخلتْ، جمعت أخواتى البنات كلهن من السعفاء الكبيرة وحتى سعاد الصغيرة، وقالت لهن بحزمٍ شديدٍ ووجهٍ يشع غضبًا :

- اللى هاشوفها واقفة مع حسنية هاقطع رقبتها .

سندت ظهرى للفرن الطينى الذى بنته أمى والبنات، وظللت أفكر، وأسأل نفسى :

هل رأى أحدٌ غيرى معتمدًا ينام فوق حسنية ؟ أم أن معتمدًا اختلى مرةً أخرى بحسنية، ونزع سروالها، وفعل فيها أكثر مما رأيته بدون أن يزعجه أحدٌ كما أزعجته، وهل ستتهمنى حسنية بأننى أفشيت سرها، وستحرمنى من الحلوى التى وعدتنى بها، وربما تأخذنى إلى الترعة، وتغرقنى فيها على الرغم من أننى لم أفش سرها، ولم أقل حرفًا مما رأيته لأحدٍ . .

(٢٣)

(فى عصر يوم منذ عشر سنين جاءت شامة أخت فهيم العقيلى وهى تحمل ابنها الوحيد عبد العزيز الذى لم يكمل عامًا واحدًا، جاءت شامة غاضبةً وأخبرت أخاها فهيم بأن زوجها طلَّقها، وأخذت تبكى وتقول إن جارهم الماكر الملعون كمال ذهب إلى زوجها وأخبره بأنها تلبس "كلوت" لونه أحمر، ولأنها أجمل نساء قاو، ولأن زوجها يغار عليها بشكلٍ جنونى، عاد زوجها غاضبًا إلى البيت، وأمرها أن ترفع جلبابها، ووجدها بالفعل تلبس "كلوت" أحمر، لم يسأل كيف عرف، وبسرعة رمى عليها يمين الطلاق بالثلاثة، ذهب إليه فهيم، ووجده جالسًا أمام بيته يشرب الشاى الثقيل، وبدون كلام ولا سلام أفرغ فى جوفه ما فى جوف بندقيته الآلية، وعاد إلى أخته شامة، وحمل عنها ابنها عبد العزيز، وظل يطوِّحه فى الهواء،

ويلهو معه مسروراً، ويطعمه بيده، ويفرد له ذراعه ليتوسده وينام عليه حتى غار أبناؤه، لكنه لم يكترث، وظل يحب عبد العزيز ابن أخته الوحيدة حتى كبر عبد العزيز، وعرف من أمه أن أباه مات مقتولاً، وأن خاله فهيم هو قاتله، وبدأ يتدرب على استخدام السلاح، وأمه تشجعه، وخاله يعتبره واحداً من أبنائه، ولكن هل سيقبل عبد العزيز العار لأن خاله هو قاتل أبيه؟ الكل فى قاو يسأل، والكل ينتظر إجابةً عن هذا السؤال)

(٢٤)

أحضرت جريدة نخلٍ خضراء من نخلةٍ صغيرةٍ بجوار عشتنا، وأخرج فتحي نعورة -جارنا في الحقل- من جيب جلبابه الأبيض الأنيق مطواةً حادةً لامعةً، كشط فتحي بالمطواة سعف الجريدة الأخضر، ورماه بعيداً، ثم كشط الجزء الأخضر من الجريدة نفسها، وبالمطواة قطع منه أربعة أجزاءٍ، سطحها أخضر، وبطنها بيضاء، وبحجر دقَّ جزءاً قويًّا من الجريدة في الأرض، وصنع منه وتداً، وحول الوتد تحلقنا، أنا وفتحي وعطيات والسعفاء، وبدأ فتحي اللعب، ضرب القطع الأربعة في الوتد المدقوق في أرض العشة، فتكومت على الأرض خضراء اللون، وأصبح -حسب قانون لعبة الطرطقة أو الخضراء التي نحن نلعبها الآن- أنَّ من حقه أن يضربنا على أقدامنا، لهذا رفعت قدمي لأعلى قليلاً، أمسك فتحي قدمي

وضربنى بالعصا ضرباتٍ خفيفةً على باطن القدمين، وبعدى جاء الدور ليمسك قدم أختى السعفاء ويرفعها لأعلى، ويضربها بالعصا التى فى يده، وأثناء ضربها من الممكن أن يتلصص، وينظر فيما بين وركيها، لكن فتحى ابتسم، وابتسمت السعفاء، وضحكنا جميعاً، ثم مسك يدها، وضربها برفقٍ على يدها وهو يضحك، وهى تضحك ضحكةً ساحرةً جعلت الْعِرْقَ الذى فى جبينها ينتفخ ويزيدها جمالاً، وجعلت عطيات تنظر لى نظرةً تكشف عن حب فتحى لأختى السعفاء.

فتحى ناعورة جارنا فى الحقل، وكلنا نحبه، أبى وأنا لكن حب السعفاء له أشد، فهو مثل سليم ابن عمى، طويلٌ، وعريضٌ، وحلو الملامح والتفاصيل، وكذلك أنيقٌ لدرجة أننا لم نره بملابس متسخة أبداً أبداً، وهو دائما مبتسمٌ، وخفيف الدم، والأهم أنه أمهر شباب القرية فى النقر على الطبلة، سليم ابن عمى ماهرٌ فى الرقص البلدى بجلبابه الأنيق وشاله المزهر وحذائه الأسود وجوربه اللامع وعصاه الخيزرانية التى يرقص على إيقاع المزمار بها، أذهب إلى الأفراح خصيصاً لكى أراهما "سليم وفتحى"، سليم يرقص، وفتحى ينقر على الطبلة، ويتوحد معها، ويرقص ويتمايل ويلامس الأرض على إيقاعاته الساخنة، ويجعل البنات والسيدات كالسمك الرعاش، طبلته تهز المرأة من أعلاها إلى أسفلها، ومن أصغر بنتٍ إلى أكبر امرأةٍ، والفرح الذى لا يذهب إليه بطبلته ينتهى فور أن يبدأ..

السعفاء تحب فتحى، وفتحى يحب أبى، وأبى يحب فتحى،

وفتحى يحرص على ألا يزعل منه أبى، لهذا لم أره مرةً واحدةً فى حياتى، وهو ينظر بقلة أدبٍ لأختى، أو يقول لها كلامًا ناعمًا، أو يلعب معها لعبة العريس والعروسة التى نلعبها أنا وعطيات على الرغم من أن أختى دائمًا ما تقول إنها تحب فتحى، تقول هذا الكلام لفتحى، وتقوله لأبى، والغريبة أن أبى وفتحى لا يأخذان هذا الكلام مأخذ الجد، ربما لأن فتحى نعورة طبال القرية، وهذه مهنةٌ حقيرةٌ فى بلدتنا كالحلاقة، وقص الحمير، ودفن الموتى، والتسول، وربما لأن فتحى من بيت نعورة، وهم بيتٌ صغيرٌ جدًّا من حيث العدد، حقيرٌ جدًّا من حيث المكانة والمنزلة، فأبوه نحيفٌ وقذرٌ ويعيش على الصدقات من الفلاحين أو السرقات من حقولهم، وأمه امرأةٌ شمطاء، طويلة اللسان واليد، وهى بعينٍ واحدةٍ والأخرى أصابها العطب منذ كانت طفلةً، وهذا لا يتناسب مع عائلتنا الكبيرة عددًا ومكانةً فى قاو، صحيح أنه بيننا وبين أنفسنا، نعرف أننا فقراء، فجدنا الكبير أبو زيد تزوج أربع عشرة امرأةً، وأنجب منهن جميعًا، وتفرقت أرضه على الورثة العديدين، لكن أهل القرية ينظرون لنا باحترامٍ وتقديرٍ، ونحن ننظر لفتحى بعطفٍ وشفقةٍ، لهذا لا مانع من أن يجلس معنا، ويلعب معنا، لكن أن يجرؤ ويطلب يد أختى السعفاء المعقود عليها لمنازع ابن عمتها، فهذا جنونٌ، وأعتقد أن فتحى أعقل من ذلك بكثير..

104

(٢٥)

(هناك رجال قلوبهم نحتت من الصخر، من هؤلاء الرجال فهيم العقيلي، ذلك الرجل الذى قتل زوج أخته وأخذ ابنها ليربيه كأبنائه، أيضًا قتل أخاه الوحيد عندما عشق غازيةً وتعلَّق بذيلها فى كل مكانٍ وكاد يبيع كلَّ أرضه، فقتله وربَّى ابنه الوحيد (عادل) الذى عشق التعليم وصار مهمومًا بالبحث عن تاريخ العنف فى قاو والبدارى، هذا العنف الممتدة جذوره لعصر ما قبل التاريخ، فهل سينجح عادل فى إيجاد طرقٍ لعلاج العنف وعمه قتَّال قُتَلةِ!)

106

(٢٦)

بعد أن اشتريت خمسين بيضة من بيوت القرية كانت قد أمرتنى أمى بأن أشتريها لتستخدمها فى صنع الكعك والغريبة والبسكويت، وبعد أن اشترت أختى أمل وعطيات بنت عمى وحبيبتى عشرين زوجًا من الحمام لتذبحهم أمى، وتحمِّرهم، وتضعهم فى الصينية التى تذهب مع العروسة، عدنا إلى البيت، ووجدت الرهبة ممتلئةً بالأولاد والبنات والشباب والنساء والرجال، وهم يقفون فى مجموعاتٍ، كان بدران الفراش بجلبابه الذى يظهر عليه أثر زيت الحلاوة الطحينية التى يسرقها من المدرسة يقف وسط مجموعةٍ وأبى وأمى وعمى رضوان حوله، قلت لبدران فى استفهام:

- النتيجة ظهرت؟

- طلعت من الأوائل.

- وعطيات ؟
- نجحت .

فـرحت أنـا ، وفـرحت عـطـيـات ، وفـرح أبى وأمى ، خـطـت أمى للداخل ثـم عادت وهى تمسك بوزة من جناحيها ، قدمت أمى الوزة لبدران الفراش ، ثم عادت مسرعة للداخل ، فرح بدران ثم قال لعمى فى استفهام :

- فين حلاوة نجاح العروسة ؟
- روح البيت وأمها تراضيك .

باركت لعطيات ، وذكّرتها بوعدها لى ، وأكدت أنها ستفى بالوعد بعد أن نرجع من فرح أختى السعفاء ، ثم نظرت يسارى ، ووجدت فتحى نعورة يطبل ، وسليم ابن عمى يرقص ، وزوجته تنظر إليه بغيظٍ ، والسعفاء تنظر لهما فى لومٍ وعتابٍ ، وهما يردان نظراتها بالضحك والابتسام ، دخلت بيتنا ، ووجدت مواجير العجين وأطباق الحناء ، وماكينة البسكويت ، والنساء من كل الأعمار يتقدمن واحدةً واحدةً ناحية أمى ، يضعن فى يدها ربع جنيه أو نصف جنيه أو جنيه ، كل واحدةٍ حسب مقدرتها المالية ، وحسب النقوط الذى زرعته فيها أمى ثم تقوم أمى بوضع الحناء فى يديها ، وفى شعر رأسها ، وفى أيدى أطفالها ورؤوسهم وأرجلهم وأيديهم . .

نظرت ، ورأيت فى ركن الحوش خالتى نعمة تجلس حزينةً ووحيدةً ، وهى تمسك جانبها الأيسر بيدها مثل عمى رضوان عندما يهاجمه المغص الكلوى ، وقد كست وجهها الجميل صفرةٌ غريبةٌ ،

سألت أمي عن خالتي، قالت أمي لي همسًا وفي حيرةٍ:

- أنا عارفة.

كان البيت يضج بالناس، فالليلة ليلة حنة أختي السعفاء، والسعفاء ترفض أن تضع الحناء على جسدها، وتعلن أنها لن تتزوج منازع أبدًا أبدًا أبدًا، أغضب هذا الكلام أمي، ومثلما تفعل بالبطة عندما تذبحها وتنتف ريشها فعلت أمي بالسعفاء، أمسكت بها، ونزلت فيها لكمًا وضربًا وعضًّا، والسعفاء تصيح وتصرخ، والنسوة الحاضرات يحاولن إبعاد أمي عن السعفاء، وفجأة سكت الجميع، ولم أعد أسمع نفسًا ولا حركةً، لا لإنسان ولا لحيوان ولا لطائر، نظرت لعيون الحاضرات، ووجدت عيونهن تنظر باحتقارٍ شديدٍ ناحية حسنية بنت عبد النعيم التي تقف أمام أمي منكسرةً حزينةً ضعيفةً، وهي تمد يدها بنصف جنيه لأمي وتقول:

- مبروك يا عمة.

- عَمَى الدبب.

هكذا قالت أمي لحسنية غاضبة، وهي تبصق عليها في قرف واسمئزاز شديدين، وتزيحها للخارج، وتضربها بحذائها، وتصب عليها أفظع الشتائم، لم يلن قلب أمي، ولم يرق لاستعطاف حسنية، فخرجت حسنية بدون أن ترى صديقتها السعفاء قبل أن تذهب لبيت زوجها منازع، خرجت تتبعها الشتائم واللعنات والأحذية والحصى والأحجار التي ضربها بها الحاضرون والحاضرات، خرجت والدموع قد حولت كحل العين الجميل الساحر إلى بئرٍ

مهجورةٍ تضخ سواداً وحزنًا ، خرجت وهى تنظر إلىَّ بعيون حمراء ناريةٍ نظرةً شديدة الغضب تشى بأننى السبب فى كل ما حدث ، كنت أود أن أجرى خلفها ، وأقف بين يديها ، وأقسم لها بأننى لم أنطق بحرف واحد ، ولم أقل كلمة واحدة ، ولم أفش سرها ، لكننى خفت من أمى . .

(٢٧)

(القساة أمثال فهيم العقيلى يستهترون بالضعفاء أمثال عبد العزيز ابن أخته وعادل ابن أخيه، لكن الضعفاء دائمًا ما ينتصرون، لقد كسب عادل احترام وتقدير أهل قاو، بينما خسر فهيم أولاده الواحد تلو الآخر، ولم يتبق غيره وغير ولد واحد مغرم كعمه بالغوازى واللف وراءهم لدرجة أن فهيم العقيلى أقسم بأغلظ الأيمان إنه لو رآه سيقتله، أما عبد العزيز فقد أصبح قويًّا وماهرًا فى ضرب النار، والأهم أنه بدأ يأخذ ملامح خاله فهيم، فهل سيزيح خاله عن زعامة قاو، ولكن كيف؟ وهو لم يأخذ ثأر أبيه بعد؟)

(٢٨)

قمت مع الأطفال والبنات والسيدات بإدخال أشياء العروسة من ملابس وحلل وأطباق وطشوت وطبيخ وقلب جدى غارق فى المرق والحمام المحمر، وذلك كله كان تحت إشراف أمى، ثم وقفت متكئاً على حائط البيت الطينى وفوق كومة من السباخ العفنة أشاهد ما يحدث، نزل منازع بجلبابه الأبيض من على الفرسة، مد ذراعيه لأعلى ليحمل العروسة بين يديه، وينزلها من على ظهر الحصان كما يفعل كل العرسان، لكن السعفاء ليست ككل العرايس، السعفاء دفعته بقدمها حتى سقطت عمامته وكاد يسقط هو أيضاً على الأرض، ونضحك عليه، وبصقت بصقةً على وجهه مسحها بكم جلبابه الواسع، ضحكت وضحك الصغار، غضبت أمى ومشت حتى وصلت إلى الفرسة، رفعت يديها، وحملت السعفاء، أنزلت

أمى السعفاء من على الفرسة بالعافية، وضربتها على ظهرها ضربةً سمع الجميع صداها، ودفعتها للأمام ناحية بوابة بيت منازع، رفضت السعفاء أن تخطو ولو خطوة واحدة، مسكت أمى بشعر رأسها، وجرجرتها حتى سقطت طرحتها وانكشف شعرها الجميل، شعرها بدون حناء، فتحت عمتى أم منازع البوابة لكنها وقفت أمامها، ورفعت ثوبها لأعلى الركبتين، دفعت أمى السعفاء بين ساقى عمتى، دخلت السعفاء بين الساقين المكرمشتين، ابتسمت عمتى، وزغردت زغرودة طويلة، واطمأنت أن السعفاء بعد انحنائها ومرورها من بين ساقيها لن تخالف أمرها، هكذا يعتقد الجميع هنا. دخلت أمى وأنا ومنازع، وأغلقت أمى البوابة خلفنا، ثم مشت خطوات ناحية الحجرة المعدة للعروسين، ثم أمسكت بالسعفاء ورمتها على السرير، وبسرعة أمسكت هى بذراع وساق، وأمسكت عمتى بذراع وساق كما يمسك الجزار خروفه، وعلى الرغم من صرخات السعفاء، وتوسلاتها، لم تتركها أمى وعمتى، بل كانتا تحثان منازع على الإسراع، لكن منازع كان مرتبكًا، فكلما يخرج المنديل الأبيض من جيبه يسقط المنديل على الأرض، وكلما يلفه على إصبعيه يسقط المنديل منه، حتى وقفت أمى، ولفت له المنديل على أصبعيه جيداً، ثم عادت وأمسكت بالسعفاء، وتقدم منازع لكى يدخل إصبعيه الملفوفين بالمنديل بين ساقى أختى السعفاء فيتلون المنديل باللون الأحمر، ويخرج منازع رافعًا الرأس والمنديل الذى صار أحمر، وتنطلق الزغاريد، وتصدح الأعيرة النارية!

لم أحتمل المنظر، وانتابت جسمى قشعريرة، نظرت بعيدًا، ووجدت عروسة الحناء، والباذنجانة السوداء، وأدركت أن أمى قد وضعتهما منعًا للسحر، مرت دقائق، ولم أسمع صراخًا، قلت أنظر لأعرف لماذا لم تصرخ السعفاء حتى الآن؟ نظرت ووجدت منازعًا ما زال يمسك بمنديل أبيض حول إصبعيه، وأنه ما زال يحوم حول هدفه كالأعمى، وأن السعفاء تقاومه بكل ما أوتيت من قوة، تعبت أمى وعمتى وغطّى العرق وجهيهما، وهنا أدركت أمى أن ضعف نظر منازع، وقوة دفاع السعفاء أو قل عنادها ونشفان رأسها لن يمكنا منازع من تحقيق هدفه، ولأن الناس تنتظر بالخارج، تركت أمى السعفاء، وفى نظرة احتقار لمنازع أخذت منه المنديل، لفت المنديل حول إصبعيها، همت أن تدخل إصبعيها بين ساقى السعفاء، وقبل أن تفعل تكون السعفاء قد تخلصت من عمتها، ووقفت، ومسكت سكينًا بجوارها وفى حزم قالت:

- لو حد قرّب لى هاموّت نفسى.

ظلت لعبة الكر والفر بين أمى وعمتى ومنازع من ناحية، والسعفاء من ناحية أخرى، مستمرة، وأدركت أن السعفاء مصممةٌ على ما فى رأسها، وأن كل هذه المحاولات لن تجدى، فذهبت إلى بيت عمى محمود، ووجدته جالسًا تحت النخلة، يأخذ سعف النخل الأصفر الجميل الذى حصل عليه من قلوب النخل وتركه فى ماجور فخارى مملوء بالماء لمدة يومين، وبمهارته يدخله فى بعضه، ويصنع منه مقاطف ومقاليع ومشنات تستخدم فى صنع الجبنة، كان يجلس مع

الشيخ صديق وهما يستحلبان الأفيون، سلمت عليهما وجلست، سألني عمي محمود قائلا:

- منازع دخل ولاّ لسه؟

- لسه.

أومأ عمي برأسه في ضيق، ولم يترك الشيخ صديق مساحة لعمي ليصب لعناته على منازع وعلى أختي السعفاء وقال في حيرة:

- الدكتور ع يقول عندها فشل كلوى.

- وهاتعمل إيه؟

- هاوديها تغسل.

- فين؟

- في أسيوط.

- بس دا مشوار!

- وهاعمل إيه بس لقدر ربنا! ادعي معايا بس ألقى لها مكان؛ كل ما أروح يقولولي مافيش مكان.

وبدون أن أقاطعهم عرفت أن الكلام على خالتي نعمة، فاندهشت كثيراً، وقلت لنفسي في دهشةٍ شديدةٍ:

- كيف لامرأة تحمل كل هذا الجمال، وهذا الحسن، وهذه الصحة، وهذا الطول، وهذا العرض، وهذه الرشاقة، وفجأة نكتشف أنها مصابة بالفشل الكلوى، وأنها ستموت خلال أيام!

في هذه الأوقات مرَّ بجوارنا ولدٌ وبنتٌ حافيان، ويركبان حماراً ضامراً، هما أصغر مني بسنوات، قال الولد:

- حدش شاف حسنية ؟

قال عمى محمود وهو يسحب نفساً من دخان سيجارته :

- لا يا ولدى .

ثم استدار ناحية الشيخ صديق وقال :

- الظاهر عبد النعيم رجَّل .

لعمى محمود زوجة ناحلة ودميمة ، تزوجها بعد أن ماتت أم ابنه أحمد ، هى امرأة أكولة وثرثارة ، ولم تنجب لعمى محمود سوى ولد عاجز ملازم الفراش ، كل رزق عمى يضيع على علاج هذا الولد ، فلا يوجد شيخ ، ولا قسيس ، ولا طبيب ، إلا وعرض عليه هذا الولد دون جدوى ، عندما جاءت حاملة كنكة الشاى نظر لها عمى محمود ، وضحك ، وقال :

- يبقى الفشل الكلوى يسيب القوقة دى ويروح لنعمة اللى زى الفرسة !

(٢٩)

لأول مرة فى حياتى أشعر أن بيتنا الواسع المفتوح على السماء صار زنزانة، فأمى ليس معها غير البكاء على أختها نعمة، وذلك منذ أخبرنا الشيخ صديق بأن حالتها تسوء، وأنها فى انتظار الموت، وأن أطباء المستشفى الجامعى فى أسيوط رفضوا دخولها المستشفى بحجة أن أمرها قد انتهى، وعليها أن تموت على حصيرتها، وفى بيتها، ووسط أهلها بدلاً من البهدلة على حد قول الطبيب، وأبى دائم الجلوس مع عمى محمود، وهما يبحثان عن حل يجعل أختى السعفاء ترضى بابن أختهما منازع، مرة يبحثان عن حلٍ عند شيخٍ، ومرة يبحثان عن حلٍ عند قسيسٍ، ومرة يبحثان عن حل عند امرأة تحسب النجوم، والسعفاء على موقفها الرافض بشدة لمنازع بالرغم من أن أبى ذهب إلى بيت منازع، ونزل فيها ضربًا بعصاه الخيزرانى

الغليظ حتى انكسرت العصا، لكنها تمسكت برأيها، وأصرت على ألا تجعل منازعا زوجا لها مهما يكن.

جاءت عطيات، وطلبت منى أن نذهب إلى الحقل لنحرس القطن الذى زرعه أبى الأيام الماضية، وافقت بسرعة، وهرولت معها، وأنا كلى أمل فى أن تفى بوعدها لى، ونلعب عروسة وعريس كما وعدتنى..

عندما همّت عطيات بالجلوس فى العشة اكتشفت أنها كبرت، ثدياها ازدادا دورانًا، وصدرها أصبح أكثر اتساعًا، وظهر بين ثدييها نهرٌ، زاد شهيتى، وتمنيت أن أشرب منه، فذكّرتها بوعدها لى، وطلبت منها أن نلعب عروسة وعريس، كانت عطيات تنظر لى على أننى رجل كبير، لهذا قالت لى:

- ما تيجى تخطبنى.

ولأننى كنت أنظر لنفسى على أننى صغير، ولم أصبح بعد رجلاً، ضحكت، وسخرت من كلامها، فوقفت غاضبةً، وقالت، وهى تخطو مبتعدة عنى:

- أنا هاروح أخطبك من مرة عمى.

ذهبت المجنونة، وتركتنى أفكر فيما سأفعل عندما أعود للبيت؟ وماذا سأقول لأمى، وكيف سأتفادى لكماتها وقرصاتها وضرباتها؟ وبينما أنا كذلك أحدث نفسى، وأقيس ظلال النخل والنبق وعيدان القطن النابتة وأقيس ظلى، وأقارنه بظلال أبى وعمى، وأفكر فى كلام عطيات سمعت أصواتٍ عاليةً تهرول، وهى تجرى متجهةً شمالاً بمحاذاة الترعة، سألت أحد المهرولين قائلا:

- هوّ فيه ايه يا عمى؟
- لقيوا جثة حسنية فى المجموعة.

هرولت معهم، وكنا كلما مشينا خطوات يزداد عددنا حتى وصلنا إلى مدخل العتمانية قريتنا الكبيرة، ووجدنا سيارة ربع نقل، ركبنا السيارة، كان العدد كبيراً، وأوشك السائق أن ينزلنا نحن الصغار لولا أن أمره رجلٌ كبيرٌ بسرعة التحرك..

سار السائق مسرعًا فى طريق مسفلت على يميننا الترعة، وعلى يسارنا مصرف مياه، ويغطى الاثنين أشجارُ المانجو الكثيرة التى بدأت تثمر، والتى تلقى بثمارها الصغيرة الخضراء الكثيرة على الطريق، عشر دقائق ووصلنا المجموعة، ووجدنا جثة حسنية وسط رمم الأبقار والجاموس والماعز والدجاج والبط والأوز، وهى منتفخة، وتأكل الغربان من قلبها ومن صدرها ومن أحشائها، والناس تضربها بالحجارة، وتسبها، وتلعنها، لا تقول لها مثلما يقول أبى لكل جثة تأتى من الجنوب:

- لو طالب الدفنة حوّد علينا.

شعرت بالأرض تدور بى، ولم أشعر بشىء آخر..

وعندما استيقظت على صراخ أمى، وهى ملفوفة بالثوب الأسود، وطين الزير يغطى رأسها ووجهها، وهى تقول:

- يا صغيرة يا اختى.

أدركت أن خالتى نعمة ماتت، نظرت حولى، ووجدت أبى وأختى أمل وحبيبتى عطيات يبكون، ووجدتنى أنام على حجر

أختى السعفاء، وهى تفلّينى، وقد كسا وجهها كدماتٌ سوداء وحزنٌ غريبٌ لم يعتده وجهها..

عندما فتحت عينى فرح الجميع، ومسحوا دموعهم، وأمر أبى أختى السعفاء بأن تكسر لى بيضتين فى السمن البلدى، وتعشينى، لكننى وقفت وقلت:

- أنا سارح الغيط.

وقفت عطيات وأصرت أن تأتى معى، وفى الطريق حكت ما حدث لى من إغماء عندما رأيت جثة حسنية، حتى انتبهت ثم قالت لى إنها طلبت من أمى أن تخطبها لى، لكن أمى مسكت سباطة النخل، وضربتها بها أمام البنات، وحذرتها من الاقتراب منى، ثم أخبرتنى بأن الضبع ابن خالها الذى يكبرنى بسنةٍ واحدةٍ تقدَّم لها، وطلب يدها، وقالت إن أباها وأمها موافقان، وإن أمها لديها رغبة عارمة فى أن تزوجها وهى صغيرة مثل أخواتها البنات لدرجة أنها يوم الجمعة الماضى أخذت ديكها الوحيد، وذهبت للشيخ سلمان أبو على، وكنست المقام بطرحتها، وظلت تردد:

- جايبه لك ديك
محشى بفريك
يا شيخ سلمان
ربى يخليك
جوّز عطيات
وريّح بالى

وعندما طلبت منها أن تفى بوعدها القديم وتلعب معى لعبة العريس والعروسة، ضحكت وقالت وهى تهز صدرها فى إثارة:

- هاروح ألعبها مع الضبع.

لم يعد فى يدى شىء أضغط به على عطيات، فلقد نجحت فى الشهادة الابتدائية بفضل مساعدتى لها وانتهى دورى، وستدخل العام الدراسى القادم مدرسة أم المؤمنين بنات، وستبحث عن بنت متفوقة تساعدها، وأنا سأدخل مدرسة العتمانية الإعدادية بنين، ولا أجد حبيبة كعطيات، ولا أجد حتى بنتًا أخرى، فلا توجد فى بلدنا مدرسة إعدادية مشتركة، ولا يوجد فصل دراسى يحتوى بين جدرانه جنسين مختلفين، وهذا بالنسبة إلىّ نفَّرنى من المدرسة ومن التعليم كله، بالرغم من أننى عشت سنوات أحلم بالبنطلون والقميص الذى سأرتديه فى الإعدادية..

(٣٠)

«إِن جاءك واحدٌ من الناس وأخبرك بأن الواد عبد العزيز، ابن شامة أخت فهيم العقيلى، دخل على خاله وهو يأكل فى صحن بيته الواسع العتيق، وصوَّب نحوه بندقيته، وأفرغ ما فيها فى قلب خاله وهو يقول له: أبويا ع يسلم عليك، فصدقه، واعلم أنه لا يهز الشجرةَ إلا فرعٌ منها»

(٣١)

استيقظت على صياح وأصوات مرتفعة، نظرت حولى، ووجدتنى أنام على حصيرة من الحلفا بها ثقوب، وتحت قدمى تكوَّم اللحاف القديم الممزق الذى يغطِّينا جميعًا، وبالقرب من رأسى حزمة حشيش خضراء أحضرها أبى لبقرتنا الوحيدة، التفتُّ حولى، ووجدت أبى يمسك عصاه الخيزرانية الغليظة وبجواره يجلس عمى محمود وابن عمى الأستاذ أحمد وعمى رضوان، وأمى فى وسط الدائرة تمسك بأختى السعفاء من الخلف، أختى السعفاء التى هربت من بيت منازع زوجها، ورفضت أن تعود إليه مرة أخرى، ومعهم أبى وهو يجلس على أطراف أصابعه ويضرب السعفاء بيده اليسرى القوية ضربات مؤلمة جدًّا وهو يقول لها وهى تصرخ:

– مش هتروّحى لجوزك؟

- ريحته وحشة.

يأمر أبى أمى أن تأتيه بالمقص، وقبل أن تقف أمى تكون أختى أمل قد وقفت، وجرت، وعادت بالمقص، أعطت المقص لأبى، مسك أبى المقص جيداً، ومسك برأس السعفاء، كرر سؤاله عليها مهدداً:

- هتروّحى لجوزك ولاّ..؟

- دا أعمى ما ع يشوفش.

غضب أبى، وبدأ يقص شعر رأسها، وهى تتوسل إليه كى يتركها، وأنا لا أقدر على منع دموعى من النزول حتى قص أبى كل شعرها، وصارت رأس السعفاء التى كانت أجمل رأس رأيتها فى حياتى، كقطعة بطاطس أخرجناها توًّا من باطن الأرض، بكت السعفاء كثيراً، وبكيت أنا لدرجة أن أمى ضربتنى، ونهتنى عن فعل ذلك، أشعل عمى محمود سيجارة له وأخرى لأبى وثالثة لعمى رضوان، ودخَّنوا بحرقة شديدة، كرر أبى سؤاله السابق على أختى السعفاء، وبالرغم من أن التعب والحزن سيطرا عليها، فإنها كررت نفس إجابتها السابقة، غضب أبى وقال لأمى:

- هاتى المحساس.

وقفت أمى، ومشت ناحية الفرن، وضعت يدها داخل الفرن الطينى القديم، وعادت بسيخ حديد ملتو فى آخره، أعطت المحساس لأبى، وضع أبى المحساس فى نار الكانون، ونظر للسعفاء مهدداً، خافت السعفاء، وبدأ جسمها يرتعش، وكلما كان المحساس يزداد احمراراً كانت السعفاء تزداد ارتعاشاً وقشعريرة وانكماشاً حتى

قال لها أبى فى استفهام وهو يسحب آخر نفس من سيجارته بحرقة ويرمى عقب السيجارة بعيداً:

- ما تروّحى لواد عمتك أحسن.

- دا مش راجل.

بعينه أشار أبى لأمى، وقفت أمى، دارت حول السعفاء ومسكت أمى أختى السعفاء من ظهرها جيداً، ومسك عمى محمود قدمى أختى السعفاء جيداً، ومسك أبى المحساس الحديدي الذى صار لونه مثل النار، قرَّب أبى الجزء الأحمر من المحساس من قدمى السعفاء، ومسك بيمناه قدميها، وباليد اليسرى قرَّب المحساس، وعندما التقى الجزء الأحمر من السيخ ببطن قدمى السعفاء أغمضت عينى، لكننى سمعت صوت طشطشات قوية، وصرخة طار بسببها شعر رأسى، وعندما مسحت دموعى، وفتحت عينى، لمحت أختى السعفاء تجرى خارجة كالمجنونة، وهى تلعن أبا منازع، وتلعن نفسها، وتلعنهم واحداً واحداً، وتتوعدهم بأنها ستلحق بهم العار إلى يوم الدين..

غمزنى أبى بكوعه فى جانبى، وحثنى على أن أتبعها، وبسرعة خرجت أهرول خلفها، وجدتها تتجه شرقًا وسط حقول القطن والذرة، هرولت خلفها، أسرعت وأسرعت، تجاوزت جنينة بيت الحاج، وأنا أتبعها، خرجت من وادى الشيخ المزروع، وبدأت تجرى وسط الرمال والجبال، جريت خلفها، الشمس شديدة، والصحراء سراب، والعرق غزير، والماء نادر، والأحجار والأشواك قاسية على

قدمى، نظرت حولى فاختلطت الاتجاهات، وجدت صورتها تصغر في عينى فاستأنفت الجرى وأنا أصيح وأتوسل لها بأن تتوقف، وهى تجرى وصورتها تصغر وتصغر، وأنا ألتقط نَفَسى بالكاد وأتحامل وأجرى حتى لا تهرب صورتها من عينى، وفجأة سمعت صوتًا يصيح فى استعطاف قائلا:

- استنى يا بت؛ استنى يا فوز.

نظرت خلفى، ووجدت أبى يجرى خلفى حافيًا، وقد كبر عشر سنوات، وكساه الشيب أكثر وأكثر، وانحنى ظهره، وكانت كلما صغرت صورة السعفاء فى عينى، وعينيه وتوغلت شرقًا فى الجبال كنت أرى أبى، وقد كبر أكثر، وانحنى ظهره أكثر وشاب أكثر، صاح أبى كثيراً وناداها بصوت حزين مرتفع، ولم تكترث، وتوسَّل لها ولم تكترث، واستمرت فى الجرى وأنا وأبى خلفها، وشيئًا فشيئًا بدأت تصغر وتصغر وتصغر حتى صارت نقطة سوداء صغيرة سرعان ما ذابت فى الرمال، وعلى الرغم من أننى أنا وأبى ظللنا لساعات طوال نبحث عنها حتى حاصرنا الظلام وحاصرتنا الذئاب والضباع، فإننا لم نجدها، فلقد ذابت فى الصحراء كما يذوب فص الملح فى الماء، وعدنا أنا وأبى مطأطئى الرأس، مكسورى النفس، لا نعرف ماذا نقول للناس؟ وهل سيصدقوننا إن قلنا ما حدث؟ أم سيلحقون بها عاراً لم ترتكبه!

(٣٢)

(إذا رمتك المقادير، ودخلت النص القبلي من قريتنا العتيقة جداً، فسوف تجد عبد العزيز، ابن العاشرة، يجلس القرفصاء سانداً رأسه على بندقيته ومتكئًا بظهره على حائط بيت أبى الغيط الطينى، أو راكبًا فرسه ذات السرج المذهب الأنيق، وهو يقول: مافيش حد عايز يرمّل مرته؟ مافيش حد عايز ييتّم عياله؟ مافيش حد عايز يكسر قلب أمه عليه؟

إذا رأيته وسمعته، فاعلمْ أن الشر فى بلادنا كنبات الحلفا؛ إن قطعت نبتةً ستجدها بعد قليلٍ قد أنبتت سبع نبتاتٍ، وفى كل نبتةٍ مئة شوكةٍ، والفقر والجهل والظلم سيضاعفون الشوك لمن يشاءون)

تمت

فى قاو بأسيوط

١٩/ ٦/ ٢٠١١

الكاتب

*** ماهرمهران**

– من مواليد قاو ـ البدارى ـ أسيوط ١٩٦٨ .

– تخرج من كلية التربية جامعة أسيوط .

– عضو اتحاد كتاب مصر .

– مؤلف باتحاد الإذاعة والتليـــــفزيون المصرى .

– معد برامج باتحاد الإذاعة والتليفزيون المصرى .

– عضو جمعية الكتاب والفنانيـن (أتيليه القاهرة) .

*** صدر له :**

١ـ هفهفات النخيل ، ٩٩ ، إبداعات ، قصور الثقافة .

٢ـ عزيـــــــزة ، ٢٠٠١ ، إشراقات ، هيـئة الكتاب .

٣ـ أغانى أشجار السنط ، ٢٠٠٣ ، مكتبة الأسـرة .

٤ـ الخدّامـــــــــة ، ٢٠٠٥ ، مكتبة الأسـرة .

٥ـ أوجاع متوحشـــة ، ٢٠٠٧ ، اكتـب .

٦ـ تعليــــم مجانى ، ٢٠٠٩ ، الناشر .

٧ـ قاو أسطورة الدم ، ٢٠١٠ ، وعـد .

٨ـ إيه ده ؟! ، ٢٠١١ ، صبـح .

٩ـ الترنج الأبيض ، ٢٠١١ ، مكتبة جزيـرة الورد .

٢ـ ويقول عبدالصبور ، ٢٠١٣ ، دار وعد .

* **له قيد النشر:**

١ـ جسمها جنينة (شعر).

* **الأعمال الدرامية:**

١ـ الولد الطيب سهرة (ساعة) عن رواية بن يجوب العالم لدوريس ليسنج إذاعة البرنامج الثقافى.

٢ـ الآخر أنا سهرة (ساعتان) عن رواية الآخر مثلى لساراماجو إذاعة البرنامج الثقافى.

٣ـ الرؤساء سهرة عن قصة ليوسا إذاعة البرنامج الثقافى.

٤ـ قطة تحت المطر، سهرة عن قصة لهمنجواى إذاعة البرنامج الثقافى.

٥ـ الفراشة والدبابة سهرة عن قصة لهمنجواى إذاعة البرنامج الثقافى.

٦ـ موندو سهرة عن قصة للوكليزيو إذاعة البرنامج الثقافى

٣ـ مكتب أم عتريس للزواج الحديث (٣٠ حلقة) كوميدى، إذاعة الشباب والرياضة.

* **الجوائز:**

١ـ الجائزة الأولى لشعر العامية المصرية التى نظمتها جريدة أخبار الأدب عام ١٩٩٨ .

للنشر في السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

إصدارات

سلسلة حروف

1- اليــوم الــذى.. بــدأ .... عطية معبد

2- أو ما يشبه العشق..................... فدوى حسن

3- ناسى حاجة.......................... السعيد المصرى

4- حكايات من بلاد البمبوزيا.............. محمود سيف الدين

5- أعمى بيقرا كتابه.. بتصرف............. محمود الحلوانى

6- كتاب السطور الأربعة................. حمدى الجزار

7- حبيبتى مروة.......................... نصر عبد الرحمن

8- مسامرة جيدة لأرق طويل.............. عصام الزهيرى

9- نظرة تانية للملامح ع الخريطة .... محمد ربيع محمد

10- فى المستقبل القريب جداً .... هشام محمود

11- للموتِ سُمْعَةٌ سيّئةٌ .... سالم أبو شبانة

12- قريتنا تصنع أسطورة .... محمود أبو راجح

13- امرأة فى المنام .... محمود أبو عيشة

14 حروف
بنات قبلي
ماهر مهران
الهيئة العامة لقصور الثقافة
2013

إنه عالم القرية، كما يمكن لطفل أن يراه ... حيث
منظور (الراوي-الطفل) هو منظور المرآة، لا يعكس ما
يراه دونما تعليق في لغة شفافة، أو مرآوية، تمثيلية
(تمثل العالم المروي عنه - هو نفسه - دونما تأويل)،
كما يتكئ على الدلالة التي تتمحور حول الموقع
(الهامشي) حيث تحتله البراءة التي يمثلها في عالم
القرية بقيمه العتيقة ووحشيته ولا إنسانيته..
هذا وقد حاول المؤلف عبر (منظور الراوي - الطفل)
تجاوز الرواية التقليدية، بنسقيتها المعهودة (الحبكة،
وحدة الشخصية، الاستمرارية والتنامي، التماسك
والترابط... الخ)، مشتغلا على (الانفصال أو التشظي
والتبعثر)، مما جعل الرواية تنفتح على عالم
التناقضات وتنبني على المفارقات - عوضا عن
الاستعارة، مما أضفى على السـرد حيوية فائقة..

تصميم الغلاف.. د. خالد سرور
لوحة الغلاف.. الفنان إبراهيم غزالة
www.gocp.gov.eg

الثمن : جنيهان